فهـــرس الـعـــدد

● **دراســات وابحــاث**



الجزائر فى العهد التركى

د. محفوظ قداش
معهد العلوم الاجتماعية
ـ جامعة الجزائر ـ



ينطوى العهد التركى الذى دام فى الجزائر نيفا وثلاثة قرون على عدد من المشاكل • والمشكلة الاولى فى هذا التاريخ ، هى انه لا يوجد تحت تصرف الباحثين الذين يريدون معرفته سوى عدد صغير من الوثائق ، ومعظمها من الكتب التى نشرت فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يعن باعادة نشرها بعد ذلك •

وكذلك نجد ان عدم تقدم البحث التاريخى عن هذه الفترة ، مرجعه فى المكان الاول ، عدم وجود مراجع ووثائق مفيدة • وهذه المشكلة لم يمكن حلها تماما •

ومعظم الوثائق الموجودة بين أيدينا مكتوبة باللغة التركية القديمة ، أى اللغة التى كانت تكتب بالحروف العربية ، والتى تصعب قراءتها حتى على الاتراك المحدثين أنفسهم • والى جانب المصادر التركية ، يوجد عدد من مستودعات الوثائق (الارشيفات) باللغة الاسبانية ، لم تستغل بعد •

وفيما يتعلق بمعرفة اللغة التركية القديمة ، تبذل فى الجزائر جهود للتغلب على هذه المشكلة ، فى كلية الآداب فى جامعة الجزائر ، بتدريس اللغة التركية القديمة بالحروف العربية • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، تجرى الآن محادثات مع الدوائر التركية المعنية لاستعادة ، أو على الاقل ، لتصوير عشرات الوثائق الموجودة فى اسطنبول والتى لم تسجل بعد •

ومع ذلك ، فان هذا التاريخ الذى يمتد على ثلاثة قرون يمثل أهمية خاصة بالنسبة الينا ، وخصوصا ، لان المعلومات التى وصلت الينا عنها ، انما تلقيناها من المدرسة الاستعمارية التاريخية ، التى كانت مضطرة ، بحكم الظروف الى تقديم نظرة متحيزة عنهـــا •

ونحن اذا أردنا الآن دراسة هذه الفترة من تاريخنا القومى التى تمتد على ثلاثة قرون ، فينبغى أن ندرسها من زاوية قومية • واذا نظرنا الى العهد التركى من هذه الزاوية ، فنحن مضطرون الى طرح بعض الاسئلة على بساط البحث ، حتى يمكننا توجيه أبحاثنا • واول الاسئلة التى تفرض نفسها فى هذا السياق ، هى كيف وصل الاتراك الى الجزائر ؟ ولماذا جاؤوا الى هذه البلاد ؟ فهل جاؤوا اليها مستعمرين أم محررين ؟ وعندما وصلوا الى هذه الديار ، ماذا كانت مواقفهم ، وكيف كانت علاقاتهم بسكانها ؟ فهل يقوم العهد التركى على أساس جماعتين عنصريتين متميزتين ، أم كانت هناك محاولة للاندماج بين الاهالى والاتراك ؟ وكذلك يمكن ان نتساءل ، ماذا كان دور الجزائر فى البحر الابيض المتوسط بعد وصول الاتراك ؟ ثم ما هو المظهر الذى اتخذه وجود الاتراك ، وماذا كانت العلاقات بين الجزائر وتركيا فى ذلك العهد ، فهل كانت هذه العلاقات علاقات تبعية ، أم هى من نوع العلاقات التى تقوم بين بلديـن مستقلين ؟ هل كانت الجزائر ولاية عثمانية أم مستعمرة ؟

والى جانب محاولة الاجابة على هذه الاسئلة ، سنحاول أيضا طرح بعض المشاكل الاساسية ، التى أثارها الفرنسيون غداة فتح الجزائر والتى تتعلق بوضع البلد من الناحية الحضارية ، وباتهام الجزائر بأنها بلد القرصنة ، ومشكلة الوضع الاقتصادى

وما اذا كان البلد يشكو من فقر مدقع ثم أصبح بلدا ثريا بعد مجيء الفرنسيين ، أم على العكس ، كان يتمتع بمستوى مرض من المعيشة ثم انخفض بعد الاحتلال الفرنسي ؟

فهذه الاسئلة كلها تهمنا في المكان الاول ، اذا أردنا محاولة وضع تاريخ من زاوية قومية . وفي هذه الحالة ، لا يسعنا الا القيام بجولة سريعة في هذه الفترة ، لا بقصد الاجابة عن هذه الاسئلة وحل هذه المشاكل ، بل لمحاولة توجيه البحث لوضع تاريخ قومي ، أي ، تاريخ يمثل وجهة نظر الاشخاص الذين يعيشون في هذا البلد وعلى ضوء اعتبار السكان الاصليين ، وليس على ضوء اعتبار رأى الاجانب الذين تعاقبوا في هذا البلـــد .

فالمشكلة الاولى ، اذا ، تتعلق بوصول الاتراك . فنحن نعرف ان هذه الفترة تقع في بداية القرن السادس عشر الميلادى ، وهى الفترة التى كانت تتعايش في المغرب ثلاث دويلات ، تتولى كل منها شؤون كل واحد من البلدان الثلاثة : بنو مرين في المغرب وبنو عبد الوادى في تلمسان (أى الجزائر) ، والحفصيون في تونس .

والملاحظة الاولى التى ينبغى تسجيلها ، هى ان البلدين الشقيقين كان كلاهمـا يتمتع بشخصيته الواضحة السمات في بداية القرن السادس عشر ، وان المغرب الاقصى أخذ يصبح فعلا وحدة قومية تحت بنى مرين ، وان تونس كانت هى الاخرى في طور تكوين وحدة ، واما في المغرب الاوسط ، فقد فشل بنو عبد الوادى في محاولتهم خلق دولة تشمل جميع أطراف الجزائر .

ولكن لماذا فشلت مملكة تلمسان في هذه المهمة ؟ ربما كان السبب في ذلك يرجع الى وضع العاصمة ، تلمسان ، التى كانت مدينة مهمة ، ولكنها تقع في طرف المملكة الغربى وليس في وسط البلد ، والسبب الآخر ، هـو قلـة اتساع المراكز العمـرانية وضعف ازدهارها في المغرب الاوسط ، وذلك في مقابل انتشار حياة البدو الرحل في عدة مناطق ، ولا سيما في ولاية وهران ، فقد كان البدو الرحل يتجولون في كل اتجاه ، حتى الشواطىء . ونحن نعرف أن انتشار نمط حياة البدو أمر لا يساعد على اقامة الدول ومن ثم فان هذا الوضع الذى يقوم على الرعى والانتاج الذى يمارسه البدو

الرحل ، كان من العوامل التى أدت الى فشل مملكة تلمسان فى نشر سلطانها نحو الشرق • وكذلك يمكننا أن نضيف ان الطرق التجارية التى كانت تتجه من تلمسان الى افريقية الغربية ، كانت مصدر ثروة طائلة • ولكن أهمية هذه الطرق تضاءلت فى عهد بنى عبد الوادى ، وحلت محلها طرق أخرى • وهذا العامل يفسر لنا ارتخاء الحياة الاقتصادية والسياسية فى البلد • وأخيرا يجب ان نذكر ان المغرب الاوسط يقع بين تونس والمغرب الاقصى ، وبينما كان المغرب الاقصى يسعى لاقتطاع بعض المناطق الجزائرية فى المغرب ، كانت تونس تعمل للاستيلاء على مناطق أخرى فى شرق البلاد •

وهذا الوضع لم يكن يساعد ، هو الآخر ، على قيام دولة ثابتة قوية فى المغرب الاوسـط •

والسبب الآخر الذى يفسر هذا الفشل ، هو التهديد البرتغالى والاسبانى للمغرب الاقصى وللجزائر ، ولو ان التهديد الاسبانى كان يتجه خصوصا الى الجزائر • فبعد استعادة الاسبان حكم بلدهم ، اتجهوا الى الاستقرار عند البحر الابيض على الشواطىء المغـربيـة •

وقد كانت الاسباب التى دفعت الاسبان فى هذا الاتجاه ، ذات طابع دينى واقتصادى فى نفس الوقت • فعلى الصعيد الاقتصادى ، كان الاسبان يبحثون عن قواعد لاستغلال البلد ، ولهذه الغاية احتلوا المرسى الكبير وشرشال ومستغانم وتنس وبجاية ، بل والجزائر أيضا حيث احتلوا الجزيرة الصغيرة التى تمتد فى الموقع المعروف حاليا باسم الامـيرالية •

ومن هذه القواعد ، كان الاسبان يهددون العالم الاسلامى كله • وهذا الاعتبار هو الذى يفسر تدخل الاتراك بالقوة • والاتراك ، هم الذين تصدوا للدفاع عن الاسـلام فى ذلك العهد ، فى أوروبا وفى شرق البحر الابيض وغربه • وقد كانت تركيا تحارب فى جبهة برية ضد المجر والنمسا ، وفى جبهة بحرية ضد الدول البحرية الاوروبية • وكذلك دخل الاتراك فى حرب ضد اسبانيا التى كان نفوذها يمتد فى البحر الابيض وفى أوروبا ، بل وفى أمريكا أيضا •

ولمواجهة التهديد الاسباني ، استنجد سكان الجزائر وبجاية من الجزائريين بالاتراك لمحاولة الدفاع عنهم • وفى هذه المرحلة ندخل فى تاريخ الاخوين عروج وخير الدين اللذين لمع اسماهما فى المعارك البحرية وخصوصا بالمساعدة التى قدماها للمسلمين الاندلسيين الذين كانوا يلوذون بالفرار من أعمال محاكم التحقيق • وقد قام البحريان التركيان بمساعدة عدد كبير من الاندلسيين وبنقلهم الى المدن الرئيسية فى المغرب حيث كانت المدنية فى معظمها من أصل أندلسى •

لقد استنجدت بجاية بعروج وبأخيه وفشلا فى انجادها ، ولكنهما نجحا فى مهمتهما عندما استنجدت بهما الجزائر ، وذلك بعد جهد ومشقة • وقد نزل الاتراك فى الجزائر ودمروا القلعة التى كان الاسبان متحصنين بها فى موقع الاميرالية الحالى ، حيث لا يزال يوجد سور وبرج قائم ، من آثار القلعة • وبأحجار هذه القلعة ، ردم خير الدين لسان البحر الذى يفصل بين اليابسة والجزيرة التى كان يحتلها الاسبان ، وبهذه العمليات ، دخل خير الدين فى تاريخ مدينة الجزائر ، ويدخل الاتراك رسميا فى تاريخ بلدنا •

وقد كان من نتائج تدخل الاتراك ، قيام دولة جزائرية • وكذلك اقنع خير الدين علماء البلد وأعيانها بأن يطلبوا مساعدة الدولةالعثمانية واعتراف السلطان بسيادة الدولة الجزائرية • وقد قبل السلطان هذا الطلب الذى قدمه اليه وفد من الجزائريين وعين باى البايات ، أى حاكم الحكام على مدينة الجزائر وعلى جميع الفتوحات التى يقوم بها فى الجزائر • وكذلك أصبحت مدينة الجزائر القاعدة الاساسية للعمليات التى يقوم بها الاتراك ضد توغل الاسبان •

وقد كان قيام دولة الجزائر التى سينتشر نفوذها فى الداخل والتى ستستمر ثلاثة قرون تاريخا مهما • وفى هذا الوقت رسمت حدود الجزائر بوضوح ، وبعبارة أخرى ، فقد ظهرت الجزائر كوحدة سياسية وجغرافية • وهذه الخطوة تعتبر حدثا حاسما فى تاريخ تكوين الامة الجزائرية • ومن عملية استقرار الاتراك فى الجزائر ، يمكننا أن نستخلص النتائج التالية :

ان عملية نزول الاتراك فى الجزائر قد تمت فى نطاق اسلامى وفى سياق العمليات التى كانت تجرى فى البحر الابيض المتوسط ، وعلى هذا الاساس ينبغى النظر اليها

وتحليلها · لان المغرب الاوسط سيقوم بعد ذلك بدور فى النضال بين الامبراطورية الاسبانية والامبراطورية الاسلامية ·

والملاحظة الثانية الجديرة بالتسجيل ، هى أن عناصر من سكان الجزائر ، هى التى طلبت الى الاتراك مساعدتهم والاستقرار فى هذه البلاد · وقد كان الاتراك فى نظر الرأى العام الجزائرى ، يمثلون القوة الحقيقية التى تدافع عن الاسلام ·

والملاحظة الثالثة ، هى أن مدينة الجزائر ستصبح قاعدة للنضال ضد الاسبان ، كما سيخرج من هذه المدينة عدد من مشاهير نشاط القرصنة فى البحر الابيض ولما انتهى النضال مع الاسبان ، أصبح الاتراك أسياد الجزائر ومحتلين لها · وكذلك يمكننا أن نتحدث عن العلاقات بين الاتراك والجزائريين ، ابتداء من اللحظة التى تقلص فيها الخطر الاسبانى ، بأنها علاقات أقلية تتمتع بامتيازات وتحكم البلد ، بأغلبية من المحكومين ·

ونحن نلاحظ ان الاتراك كانوا يسجلون انتصارا تلو انتصار منذ استقرارهم فى الجزائر ، حتى قضوا نهائيا على الاحتلال الاسبانى للجزائر ، وذلك فيما عدا مدينة وهران التى احتفظوا بها حتى القرن الثامن عشر (1791 ـ 1792م) ·

وفى غضون هذا النضال وقع عدد من المعارك المشهورة ، نذكر منها ، على الخصوص تلك المعركة التى وقعت فى الحامة والتى خاض غمارها وانهزم فيها الاسطول الاسبانى باسره والذى كان يقوده الامبراطور شارل كينط نفسه ، فى سنة 1541م · فان الامبراطور أبى الا أن يقوم بنفسه باعداد هذه الحملة البحرية والسير على رأسها لغزو مدينة الجزائر · وقد تطلب الاستعداد العسكرى (بالاضافة الى الاستعداد الديبلوماسى) ما يتراوح بين 5 و 8 سنوات · وهذه الحملة تمت بموافقة الدول الاوروبية وبمساعدة البابا الذى باركها ومدها بالوسائل المادية · وقد نزل الاسبان هنا فى الجزائر وتسلقوا هضابها حتى كدية الصابون · (Fort de l'Empreur) فى طجرا · وهنا وقعت المعركة التى اضطر الاسبان اثرها الى العودة الى سفنهم ، قبل أن تهب عاصفة هائلة ستدفع بهم وبسفنهم الى أعماق البحر على مقربة من ضريح الوالى سيدى بوجدور ،

الذى تقول الاسطورة انه رمى بقدره الى البحر فى فورة من الغضب ، وهبت على اثر ذلك ، ونتيجة لهذا العمل ، تلك الزوابع التى قضت على قوة الاسبان · وبعد ذلك ، أصبح ضريح هذا الوالى ، فى القصبة مزارا يقصده الناس من كل صوب ·

وكذلك كان لهذه المعركة صدى قوى فى الرأى العام الاوروبى وفى الرأى العام الاسلامى ، وكسب الاتراك منها صيتا ذائعا فى العالم أجمع · وقد كان هذا النصر قاعدة لتحالف أدبى، أى أكثر من مجرد تحالف عسكرى وسياسى بين الاتراك والجزائريين · فان هذه المعركة التى قادها الاتراك ، اشتركت فيها القبائل الجزائرية الآتية من نواحى متيجة · بل ان هذه المعركة سيحتفل بها حتى اليهود الذين وجدت فى بيعتهم فى منطقة باب عزون وفى كتبهم المقدسة ادعية وصلوات تخلد ذكرى معركة 1841 · وهذا شىء لا غرابة فيه اذا عرفنا ان الاسبان كانوا يمثلون فى نظر اليهود محاكم التحقيق التى كانت تلاحقهم وتطاردهم من اسبانيا · وقد جاء اليهود الى الجزائر التى أمدتهم بالضيافة والملجأ فى نفس الظروف التى أخرج فيها المسلمون من اسبانيا ·

وعلى كل حال ، فان هذه الحوادث كلها تدل على ذيوع صيت الاتراك وشهرتهم فى الدفاع عن الاسلام على الاقل فى الفترة الاولى التى نزلوا فيها فى الجزائر · وهذا ما يفسر لنا قبول البلد للاتراك وتشتمل أيضا على أشخاص جاءوا بدافع من المثالية للجهاد من أجل الاسلام ·

فهذه الانكشارية التى يجمع أفرادها فى تركيا ، تمثل تركيا · وهذه هى الحالة ، على الاقل فى العصور الاولى · من الاحتلال التركى · والمؤكد أن عدد أفراد الانكشارية لم يكن قط كبيرا ، وهم موزعون فى شكل حاميات تسمى « نوبة » ، لان جماعات العساكر ترسل بالتناوب الى مختلف المدن ·

وعدد أفراد الانكشارية التركية يختلف باختلاف الازمنة بين 1,000 و 7,000 و 17,000 و 20,000 رجل ، وهو عدد صغير · وهذه القوة لا يمكن أن تقف طويلا فى معركة مع سكان البلد الذين يبلغ عددهم ما يتراوح بين 2 و 3 ملايين نسمة ·

فاذا كانت القوة العسكرية التركية ضعيفة ، وبقى الاتراك مع ذلك فى البلد ثلاثة قرون ، فيجب أن نبحث عن أسباب أخرى ، غير القوة لهذا البقاء · وهذه الاسباب يمكن البحث عنها فيما اعتقد فى الطريقة التى كان الاتراك يفهمون بها التعاون مع البلد ·ونحن نذكر ان الاتراك لم يكونوا يحتلون سوى المدن الشمالية · وأما القبائل فى الداخل ، فقد كانت فى معظمها تتمتع بالاستقلال فى حكم نفسها أو تدخل فى تحالف مع السلطات التركية ، وهنا أيضا ، يجب أن نستحضر فى اذهاننا صورة أخرى للوجود التركى ، اذا أردنا درس تاريخ الجزائر بتمعن فى هذه الفترة ·

وهذه القبائل التى تتمتع بالاستقلال الذاتى أو بالاستقلال التام ، كيف كانت تعيش فى ذلك الزمن ؟ وماذا كان نظامها السياسى والاجتماعى ؟

ونحن اذا درسنا الادارة التركية ، فسيتضح لنا أن البلد قد قبل بوجود الادارة التركية باعتبارها عنصرا من عناصر الدفاع عن الاسلام ·

ولكن ما هو المظهر الذى يتخذه الوجود التركى ؟ فى المكان الاول ، يتخذ هذا الوجود مظهرا عسكريا · فان الاتراك موجودون فى البلد ويحكمونه بالقوة التى تتجسم فى الانكشارية وفى الجنود الاتراك · والانكشارية التى تأتى من تركيا ، نجد لها ذكرا فى الادب والتاريخ الذى وضعه الاوروبيون ليس فيه ما ينطوى على المدح والتشريف · فالصورة المنطبعة عليهم تمثلهم غلاظا ومغامرين يأتون من سهول الاناضول ، وهم لا يمثلون شر ونفير ، ليبحثوا عن الثروة · اننى اعتقد ان هذه الصورة مبالغ فيها · والواقع ان مغامرين قد جاءوا الى هذه البلاد فى مختلف الازمنة والعصور · والمتعارف ان جميع الاشخاص الذين يهاجرون الى الخارج ، انما يتركون أوطانهم فى العادة بحثا عن المغامرات والمال · ولكنه توجد دائما أقلية يدفعها المثل الاعلى للهجرة · والكثيرون من الاتراك جاءوا ليجاهدوا ويقاتلوا · والمكتبة الوطنية تحتفظ بنسخة من وثيقة مهمة تسمح لنا بفهم نفسية الجنود الاتراك وعقليتهم · فنحن قد عثرنا على أغانى تركية تمجد الانكشارية وتتحدث عن حب الاسلام وتصف « سلطنة الجهاد » فى الجزائر · فهذه الاغانى تشيد بقيمة التضامن من بين البلدان الاسلامية من أجل النضال · ومن ثم ، فان من الممكن الاعتقاد بأن اللوحة السوداء التى رسمها المؤرخون للانكشارية

وللجنود الاتراك الذين يبحثون عن المغامرة واللذة ان الجواب عن هذه الاسئلة سيساعدنا على فهم حقيقة البلد • ولكن هذا الموضوع لم يدرس ـ مع الاسف بالكفاية •

والمهم انه كان يوجد فى البلد عدد كبير من القبائل التى تتمتع بالاستقلال ، فى الوقت الذى لا يحتفظ فيه الاتراك فى المدن الا بحاميات صغيرة • ونحن نلاحظ أيضا ان الاتراك قد حاولوا حكم البلد عن طريق الوسطاء والاعوان • وهذا النظام الذى يسمى « المخزن » (أى السلطة) ، يتمتع بكثير من المزايا ، بحيث أصبح يعنى باللغة اليومية ، نظام الحكم ، او الحكومة •

كانت توجد فى البلد قبائل تقوم بدور الوسيط فى الحكم بين الشعب والاتراك وترتبط بنوع من التحالف مع السلطة المركزية ، كلفت بالقيام بأعمال البوليس وتلتزم بتقديم الجنود للحكومة فى حالة قيام ثورة • وفى مقابل ذلك ، منح الاتراك لهذه القبائل (المخزن) أراض وبذورا لحرثها ، وأسلحة لتمكينهم من القيام بدورهم فى المحافظة على الامن بين القبائل •

ومن جهة أخرى ، فان الاتراك بعدما استقروا فى البلد كانوا يرون ان مهمتهم الاساسية ، هى تعزيز الانكشارية لصد العدو الخارجى • وبالتالى ، فهم لم يكونوا يهتمون بالسيطرة على داخل البلد ، ولم يكن يعنيهم سوى مسألتين : الاعتراف بسلطانهم ـ ذلك الاعتراف الذى يجد تعبيرا عنه فى خطبة الجمعة التى تقرأ باسم السلطان العثمانى ـ ودفع الضرائب للسلطة المركزية •

واذا ، فان الصلة الحقيقية بين الحاكم والمحكوم تتلخص فى الضرائب • وهذه الصلة قد يستحسنها البعض من حيث انها تترك للشعب حريته الكاملة • وقد ينتقدها البعض من حيث انها تركت للشعب الحبل على الغارب ، حيث لم يقم الاتراك بأى مجهود لمساعدته على التطور والتقدم ، وهو موقف سلبى • وبالتالى نجد أنفسنا أمام مظهر ايجابى ومظهر سلبى للحكم التركى فيما يتعلق بصلة الحكومة المركزية بالداخل •

ونحن نلاحظ أيضا ان الاتراك قد حاولوا الاعتماد على التضامن الاسلامى وعلى المرابطين ورجال الدين فى الداخل حيث بنوا عددا كبيرا من المساجد والزوايا وارتبطوا

برؤساء بعض المناطق الداخلية . وبعبارة أخرى ، لقد حاولوا خلق اطار طبيعي للاتصال بالداخل عن طريق السلطة الروحية ورجال القبائل .

وهذه السياسة هي التي تفسر لنا كيف استطاع الاتراك القيام بحكم البلد ، في الوقت الذي لا يملكون فيه الا عددا صغيرا من الحاميات .

ومع ذلك ، يجب ألا يفوتنا ان نذكر بأنه قد وقع عدد من الثورات والانقلابات في البلد ، احتجاجا على ارتفاع الضرائب والعوائد التي كان الاتراك يستخلصونها . وهذه في الحقيقة هي مشكلة الاحتلال .

والمشكلة الاخرى التي تستحق العناية ، هي مشكله العلاقات بين الجزائر وتركيا . فهل كانت الجزائر مستعمرة تركية ، أم دولة تتعامل مع الامبراطورية العثمانية على قدم المساواة ؟ واذا وقع تغيير في هذا الوضع ، فمتى وقع ذلك التغيير ؟

يجب أن نلاحظ انه اذا كانت الجزائر في غضون القرن السادس عشر ولاية تركية ، فان مدينة الجزائر كانت أيضا مركزا لما يسمى « بايلرباي » والذي كان يتمتع بالسلطة على الجزائر وتونس وطرابلس . وقد كانت الجزائر ولاية على قدم المساواة مع الولايات العثمانية في أوروبا . وقد كان البايلرباي ، شخصية مهمة في البلاط العثماني في القرن السادس عشر ، وكانت الجزائر وفية في ولائها للسلطان ، حيث انها لم تقم قط بثورة ضد الاتراك . وتعليل ذلك ان هذه الفترة كانت عهد جهاد وتضحية . والجزائر كثيرا ما ضحت بمصالحها من أجل قضية الجهاد .

ولكنه في القرن السابع عشر ، في عهود الباشوات والآغاوات أخذت الجزائر تدريجيا تقدر مصالحها وتضعها في المكان الاول قبل مصالح اسطنبول . وهذه الظاهرة تبدو واضحة اذا درسنا العلاقات الخارجية ، حيث نرى أن الجزائر كانت حريصة على أن ترتبط بعلاقات خارجية خاصة بها مع الدول الاجنبية . وقد كانت الجزائر توقع معاهدات مع الدول الاجنبية بصورة مستقلة عن الدولة العثمانية . وقد كانت هذه الحقيقة هي التي تمثل أقوى حجة في القول بأن الجزائر كانت دولة مستقلة قبل سنة 1830 ، حيث كانت ترتبط بعلاقات مع فرنسا وانجلترا وهولندا والولايات المتحدة الامريكية .

-ومع مرور الزمن ، ظهرت طبقة من الحكام ـ من البايات والدايات ـ تعمل لارساء حكمها للبلد على العناصر المحلية ، فكانوا يعتمدون على الجنود الجزائريين الـــذين يجمعونهم من متيجة أو من بلاد القبائل ، أو من قسنطينة ويفضلونهم على الانكشارية ، حين أدركوا ان هذه القوة تمثل البلد • ولعل أبلغ مثال لهذا الاتجاه ، هو على خوجة الذى قام بثورة فى سنة 1817 ، حين نقل قصر الداى الى القصبة وتحصن بأسوارها وأبعد الانكشارية عن مراكز الحكم ، واعتمد على الجزائريين وخصوصا القبائل • وهذه الحركة تدل على محاولة ادماج الادارة التركية فى البلد •

وهذه النزعة نلاحظها أيضا فى الباى أحمد ، باى قسنطينة •

توجد مشكلتان يرددهما المؤرخون الفرنسيون بقصد تبرير التدخل الفرنسى فى الجزائر ، وهما ، أولا : القرصنة وأعمال النهب فى عرض البحر • وانا أعتقد ان من الضرورى القول بأن هذه الظاهرة التى تدعو الى الاسف ، هى ظاهرة اشتركت فيهـا جميع البلاد الواقعة على االبحر الابيض المتوسط وليست ظاهرة خاصة بالجزائر • واذا كانت الجزائر قد اشتهرت بأعمال القرصنة ، فذلك لان السفن الجزائرية كانت أسرع وأنشط من غيرها ، ولانها كثيرا ما كان النصر حليفها • واذا كانت مصارعة السفن فى البحر نوعا من العراك والقتال فى البحر قبل به المسلمون والمسيحيون معا ـ وهو شيء يدعو الى الاسف من وجهة نظر أخلاقية ـ فان هذا الصراع قد تحول الى عمليات للنهب والسلب • وهذا موضوع مهم يحاول البعض الآن ، الاتجاه الى بحثه • ونحن يجب ان نبحث عن أسباب هذا التحول فى عدد من التطورات التى من بينها منع البلـدان الاوروبية للتجار المسلمين يعرض بضائعهم فى أوروبا ونقل سلعهم بواسطة السفن الاسلامية الى الموانيء الاوروبية • ونحن نجد تحت تصرفنا عددا من الوثائق فى ارشيفات مرسيليا تدل على ان سر كهنوت فرسان مالطة هو أنهم فرضوا على أنفسهم مهمة دينية مقدسة ، وهى الهجوم على التجار المسلمين فى البحر ومنعهم من الوصول الى الموانيء الاوروبيـــة •

والمشكلة الثانية التى يعرضها الاوروبيون لتبرير تدخل فرنسا ، هى مشكلة الرق • وهذه ، هى الاخرى ظاهرة شائعة فى البحر الابيض المتوسط وتدعو الى الاســف •

ولكن هؤلاء المؤرخين حين يتحدثون عن مدينة الجزائر بوصفها مركزا للتجارة في العبيد ، يتناسون المدن الاوروبية التي كانت توفر العبيد وتتاجر فيهم في البحر الابيض ٠

وتجارة الرقيق تدعو الى الاسف ، بدون شك ، ولكنه يجب النظر اليها من كلا جانبي البحر الابيض وليس من جانب واحد فقط ٠

والنقطة الاخرى التي تستحق العناية والبحث ، هي تلك التي تتعلق بالحضارة والاقتصاد ٠ فقد طالما وصفت الجزائر بأنها بلد بربري ، بل ان البعض كان يزعم ان الجزائر لم تكن لها مدن ٠ والقول بأن بلدا ليس فيه مدن ، معناه ان هذا البلد لا يملك حضارة ٠ ولكن الواقع ان في الجزائر آثار مدن ، بل وفيها مدن عرفت حياة من العز والبذخ والرخاء ٠ وهذه المدن تنطوي على كنوز من الآثار ، يقتضي الامر بذل أقصى الجهد لدرسها والمحافظة عليها ٠ فان كثيرا من مدننا تحتوي على قصور ومساجد ومنازل ذات قيمة أثرية لا تنكر بل ان بعض البيوت التي تسكنها عائلات كبيرة ولا تجد عناية في حي القصبة ، تمثل آثارا قومية ثمينة ٠ وبدرس هذه الآثار وتحليلها ، يمكن أن تكون فكرة عن حضارة الجزائر في العصور الغابرة ٠ ولكنه يوجد أيضا عدد كبير من المخطوطات التي يرجع تاريخها الى تلك الفترة والتي لا تزال نائمة في المستودعات ، يمكن الاستعانة بها لتكوين فكرة عن النشاط الثقافي السائد في ذلك العصر ٠ وكذلك توجد شواهد تدلنا على درجة انتشار التعليم بين سكان المدن في ذلك العهد ٠ ومن الشهود الذين يمكننا ان نشير الى أقوالهم في هذا السياق ، مؤلفان وسائحان فرنسيان ، اعلنا دهشتهما لان يروا ان نسبة الامية في بعض المدن الجزائرية أقل من نسبة الامية التي تعرفها بعض المدن الفرنسية ٠

وتبعا لذلك ، يمكن القيام بدرس عدد من الموضوعات لتعديل النظرة الشائعة عن تاريخنا وللقضاء على الترهات التي كان يذيعها الاستعمار ٠

وأنا أعتقد ، كما سبق أن أشرت ، ان أهمية العصر التركي ، هي ان هذه هي الفترة التي تحددت فيها حدود الجزائر الحالية بحيث أصبحت أراضيها اطارا للحياة المادية ٠ ففي هذه الفترة التي تحددت فيها معالم الجزائر المادية ، تكونت عادة بين سكان المغرب

الاوسط ليعيشوا تحت ادارة موحدة وفى ظل حكومة واحدة ـ حكومة تقرر مصير الشعب على ضوء مصالح الجزائر . ومن هنا ، فقد ظهرت ابتداء من العهد التركى تلك القومية الجزائرية التى كنا دائما ننادى بوجودها فى عهد الاستعمار الفرنسى ، والتى كنا نطالب باسترجاعها وباستعادة الجزائر لسيادتها القومية ، وبالتالى ، لاستقلالها .

والى جانب هذه العوامل المادية ، مثل الحدود والدولة ، والحكومة ، اعتقد انه كانت توجد أيضا رغبة روحية بين السكان للعيش فوق تراب واحد وللدفاع عن التراث المشترك . وبالاختصار . كانت توجد فى الجزائر جميع المقومات التى تمثل الضمير الادبى والتى تشكل أهم الشروط التى لابد من أن تتوفر لدى أية أمة لكى تعتبر أمة .

ففى العصر التركى تشكل الاطار المادى وروح القومية الجزائرية فى نفس الوقت .

الجزائـر فى كتابات محمـد عبـده

فرنسا اتخذت من التبشير وسيلة للسيطرة
عـلى البـلاد الاسـلامية

د. محمـد بـرج
أستاذ سابقا فى جامعة الجزائر

« لو أسلمت الأمة الفرنساوية باسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو ، وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على ما نعهـده فى الجزائر ومـداغسكر ـ هـل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها وأن لا ينتهـزوا الفرصة للثورة عليها » •

محمـد عبـده

لعل من أمتع الابحاث التى قدمها الينا امامنا الراحل محمد عبده تلك الدراسة التى انبرى فيها للرد على المؤرخ الفرنسى هانوتو Hanoteaux والمتعمق فى دراسة الاستاذ الامام يعرف عنه قدرته العجيبة على دحض الافتراءات التى يحاول خصوم الاسلام الصاقها به وكذلك تمكنه من معرفة ما يبطنه هؤلاء الخصوم وان تظاهروا عكس ما يبطنون •

ونحن حين نقرأ للاستاذ الامام نلمس غيرة دينية غير متعصبة وحماسة وطنية غير ضيقة الافق رحبة واسعة يعترف بنقائص قومه حين تكون هناك نقائص أنظر اليه يقول : « اما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله اليه في تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة وكان ما يلقاه هانوتو وأتباعه من دين صحيح شرا مما يخشونه من دين شوهته البدع » .

وكان هانوتو قد نشر مقالتين في بداية هذا القرن تحت عنوان:"الاسلام والمسألة الاسلامية"تضمنت كثيرا من الافتراءات . والحقيقة أن الشيء الذى شغل بال هانوتو وأقض مضجعه ومضجع غيره من المستعمرين آنذاك كانت قضية الجامعة الاسلامية التى برزت للوجود آنذاك يدعمها السلطان العثمانى عبد الحميد . (1)

ويستطيع الباحث أن يصل الى ذلك ، ذلك أن صاحب صحيفة الاهرام انتهز فرصة وجوده فى باريس وقابل هانوتو ، ودار حديث بينهما أراد منه صاحب الصحيفة المصرية أن يصل الى السبب الذى من أجله كتب المؤرخ الفرنسى هانوتو ما كتب ، فكان من بين ما قاله هذا المؤرخ : كيف تنادون بوجوب الاتحاد الاسلامى ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهى طامعة فى غيرهما ؟ أم تقبل به فرنسا مع املاكها الافريقية الواسعة ؟ أم تؤيده انجلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة ؟

والغريب فى الامر أن هانوتو وهو يهاجم فكرة الجامعة الاسلامية كان يبدو كالحريص على مصلحة المسلمين أكثر من حرصهم هم على مصلحتهم فهو يقول لصاحب صحيفة الاهرام انه كان يجب على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة

---

(1) ارجع لمجلة الاصالة العدد الخاص عن موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر بحث لنا بعنوان (فرنسا والنهضة القومية الجزائرية) لترى تهجم كاتب فرنسى آخر اسمه سرفيه على الجامعة الاسلامية .

أو الذين درسوا فى أروبا وتعلموا بعض علومها ان يهتموا بنشر العلوم العصرية وان يعملوا فى الخارج على ازالة سوء التفاهم بين الشرق والغرب بأن يتخذوا اقدام أوربا واجتهاد ابنائها مثالا يسيرون عليه ونموذجا يعملون بموجبه • ثم يعود فيؤكد لمحدثه « ان الرابطة الوطنية أشد من الرابطة الدينية وهى التى كانت قاعدة أوربا الاولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت » :

ولقد أردت بهذه المقدمة أن أوضح الهدف الذى دفع هانوتو لكتابة بحثيه عـن الاسلام والمسألة الاسلامية • يبدو الامر فى ظاهره وللقارىء له لاول وهلة وكأنه يدعو قومه لاتخاذ خط واضح وسياسة ظاهرة تجاه المسلمين حيث ان فرنسا صارت لها أملاك واسعة فى بلاد المسلمين • ولا ينبغى وقد أصبح لها ذلك ألا تكون لها هذه السياسة المرسومة التى يتبعها موظفوها فى تلك الاقطار الاسلامية • ذلك ان الموظفين الفرنسيين فى نظر هانوتو قسمين لا ثالث لها • قسم متعصب تماما ضد الاسلام وقسم متعاطف جدا معه ولا وسط بينهما • من أمثال الفريق الاول من يقول ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس • ويرى القسم الثانى من الموظفين الفرنسيين ان الاسلام قنطرة للامم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه قاصرا على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعضيده •

يبدو اذا الهدف الظاهرى من كتابات هانوتو وكانه لا يقصد سوى مطالبة حكومة بلاده « أن تبحث بحثا علنيا فى علاقتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على العموم اتباعها من حاكم منا ومحكـــوم » •

لكن الحقيقة التى فطن اليها الاستاذ الامام أن هانوتو لم يكتب لينصح قومه بقدر ما كتب تهجما على العقيدة الاسلامية •

وقال محمد عبده « لو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن فى أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر فى مقاله هو العظة والاعتبار

حظ الناظر فى أحوال الامم واعمال رجالها · حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ويفهم ليعلم ويحكم ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب » ·

ولم يكن هجوم هانوتو هجوم فرد مغمور فقد كان آنذاك شخصية مرموقة شغلت عدة مناصب فى الحكومة الفرنسية وكذلك على المستوى الدولى فضلا عن مكانته فى المجال العلمى · فمنذ دخل وزارة الخارجية الفرنسية كاخصائى فى الوثائق سنة 1879 بدا نجمه يلمع حتى انه اصبح نائبا فى البرلمان الفرنسى منذ سنة 1886 الى سنة 1889 وبعدها شغل منصب وزير الخارجية الفرنسية منذ سنة 1894 الى سنة 1896 · وكانت سياسته التقارب مع روسيا · أمـا عـلى المستـوى الدولى فقد أصبح نائبا من نواب رئيس منظمة عصبة الامم سنة 1922 ، سنة 1923 · أما شهرته العلمية فهى غنية عن البيان فهو صاحب الموسوعات المختلفة فى التاريخ ·

من أجل هذا كان لكتاباته عن الاسلام فى سنة 1900 صدى ضخما وانبرى الاستاذ الامام للرد عليها فور قراءتها · فهو يقول رحمه الله فى رسالته الى صحيفة المؤيد : « قرأت الساعة مقالة مسيو هانوتو ··· » وبادر بالرد عليه ·

وفى أول مقال كتبه الاستاذ الامام للرد على هذا المؤرخ الفرنسى أخذ يؤكد على تفنيد ما ادعاه هذا الاخير أن الفرنسيين وهم الشعب الآرى المسيحى الجمهورى يحمل الى الشعب الاسلامى السامى الاصل روح المدنية ! فأوضح الاستاذ الامام فضل الاسلام على العالم باسره ·

وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ثم أوضح بعد هذا ان الدين الاسلامى ليس دينا ساميا بل هو دين كل الاجناس والاقوام ·

وانتقل بعدها الاستاذ الامام من مقالته الثانية للحديث عن مسالة القدر فى الاسلام · وكان هانوتو قد أشار الى الطرقية فى الاسلام وكيف أن أصحاب الطوائف الاسلامية يلقون الترحيب من جانب المسلمين فى كل مكان · قال هانوتو : ففى البقاع

الافريقية ترى المرابطين وقد افرغوا على ابدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم قواعد الحيـاة ومبـادىء السلوك فى هذه الدنيا ٠

ثم يمضى هانوتو فيقول : ان العالم الاسلامى منقسم الى طوائف وطرائق لاعداد لها ينخرط فى سلكها الالوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى الغالب مراكـز ولا زوايا بالاراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا ٠ وغاية الامر أن العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ٠٠٠ هذا عداما يجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين مـن الفرنكات كل عام ٠ وهذا ما يستوجب الدهشة لان مقدار ما يجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ ٠

ويمضى هانوتو الى القول ان بعض الطوائف لها علاقة ود وصداقة مع « رجـال حكومتنا فى الجزائر وتونس على أحسن ما يرام » ٠ لكنه يرى ان بعض الطوائف بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما من ذلك « أن الشيخ السنوسى أسس فى جهة ليست بعيدة من الاصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له اشيـاع وانصـار » ٠

ثم يقول « كنا نرى منذ زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينصاعون لاوامر سرية تناقلوها بالافواه وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الامن المرجو » ٠

وهنا يصل هانوتو الى بيت القصيد كما يقولون فهو يؤكد « أن جراثيم الخطر لا تزال موجودة فى ثنيات الفتوح وطى أفكار المقهورين الذين اتعبتهـم النكبـات التى حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم ٠ نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديـرون هـذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لافراد العالم الاسلامى باسره كافلة بالرئاسة ٠

وبالطبع وان لم يفصح هانوتو عما يقصد فانه يشير الى حركات المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسى وحركة الجزائر الفتاة ويرى وان لم يذكر ذلك صراحة على

نحو ما فعله سرفيه فى كتابه الحركة الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر ، أن هناك تنسيقا بين افكار وآراء مصر الفتاة وتونس الفتاة من جانب وحركة الجزائر الفتاة من جانب آخر وبين هذه الحركات الثلاث وحركة الجامعة الاسلامية التى نشطت الدعاية لها آنـــذاك ٠

أخذ الامام رحمه الله يفند ما زعمه هانوتو وحمل حملة شعواء على تلك الطوائف والطرق التى أدخلت الى الدين الاسلامى ما ليس فيه وأطمعت فيه كل مستعمر ٠

قال محمد عبده : « لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغـيره وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم ٠٠٠

ويمضى الامام رحمه الله فيقول : ما اضل هانوتو وامثاله مـــن قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون اطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من اقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجرا يكسب به الحطام وجعل من ذكر الله آلة لسلب الاموال من الطغام ٠ أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لادوا فرضهم واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة واعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة واعتمدوا فى نجاح أعمالهم على معونة القدر وايقنوا فى صولتهم علما ان ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوى من الضعيف والعزيز من الذليل ، لانقلب جنوبهم لدى هانوتو عقلا وتحول هذيانهم حكمة وعلما » ٠

ثم يمضى الاستاذ الامام فى مقال ثالث عن عقيدة التوحيد التى تهجم عليها هانوتو يقول : « يظن هانوتو ان الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ولكنه وهم فى ذلك ، فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه ٠ قضى الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقى اليهما : مقام الالوهية التى تفرد بها ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء » ٠

ثم يمضى الاستاذ الامام يعيب على ما أدخله بعض المسلمين فى الدين من بدع أكلت الفضائل وحصرت العقائل ويقول رحمه الله :

أما لو رجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوا من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ... الى آخر ما أوردنا • فى بداية هذا البحث •

ولا يتسرب اليأس الى نفس الامام وهى التى مضت طول حياتها تبث الثقة فى النفوس الحائرة وتدعو الى عدم القنوط لان الله وعد المسلمين النصر ان هم اتجهوا اليه وتخلصوا مما ران عليهم من ضعف • يقول امامنا اما فليعلم كل من يخـــدع نفسه أن الاسلام ان طالت به غيبة فله أوبة ، وان صدعته النوائب فلـه نوبـــه ويستشهد بقول قسيس انجليزى شهير أسحق تيلر انه (أى الاسلام) يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار ويؤكـد محمـد عبـده ان الاسلام لا يـزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارتـــه وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لاول نشأته وتدرك منه الامم منه خير ما ترجو ان شاء الله •

« لو اسلمت الامة الفرنساوية بأمرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على ما نعهده فى الجزائر ومداغسكر ــ هل ترجـو من سكـــان مستعمراتها أن يميلوا اليها وان لا ينتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب فى افنائهم • ان القول ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هى التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه • ولكن هانوتو واضرابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئا من هذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرقون بما لا يعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون : فلينتظروا انا معهم منتظرين » •

وظل قلب محمد عبده معلقا بالجزائر • فما ان بادر صاحب جريدة الاهرام آنذاك واجرى حديثا فى باريس مع هانوتو استوضح منه الدوافع التى دفعت به الى ما كتبه عن الاسلام ، حتى بادر محمد عبده مرة أخرى يرد على رد المسيو هانوتو •

كان هانوتو قد أفصح لصاحب الاهرام عدم رضاه عن دعوة الجامعة الاسلامية التى قويت آنذاك • وكان قد أوضح لصاحب الاهرام أيضا ان الرابطة الوطنية هى من

وجهة نظره أهم من الرابطة الدينية التى تنادى بها الدولة العثمانية آنذاك • وكان صاحب الجريدة قد سأل هانوتو :

اذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد انهم راضون فى تونس فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ؟

فأجاب هانوتو : أما التونسيون فلا خلاف فى انهم مسرورون بحالتهم !! ويمضى هانوتو يقول : نحن دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف مزق شملها أفراد حكموها • واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم ولم نسألهم الا أمرا واحدا أى احترام سلطتنا السياسية • ويقول هانوتو ولا أنكر انه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر وقد شرعنا فى ذلك وسأكتب كثيرا فى هذا الموضوع لانى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ودرست أحوالها وأملى أن لا يمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى قبلى وشرعت حكومتنا فى انفاذه •

وقرأ محمد عبده رد هانوتو فبادر يرد عليه على صفحات المؤيد فى 28 ربيع الاول سنة 1318 هـ (25 يوليو سنة 1900 م) العدد 3210 وقال رحمه الله انه يرجو من صحيفة المؤيد أن ترسل رده مترجما بالفرنسية الى هانوتو ليطلع عليه • ونفى محمد عبده فى رده ان سياسة الدولة العثمانية سياسة دينية • بل ان هذه الدولة وضعت فى بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين ومللهم • وسمحت أن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها • « والذى أحب أن يعرفه مسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية ليست بسياسة دينية ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها • انما كانت فى سابق الايام دولة فتح وغلبة وفى أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ولا دخل للدين فى معاملاتها مع الدول الاوروبية » •

وروى محمد عبده فى رده قصة طريفة قال فيها ان أحد أبناء جبل لبنان ممن تعلم فى مدارس التبشير فى لبنان كان ساذجا فذهب الى باريس 1884 واتصل بأحد السوريين المقيمين فى باريس وطلب منه أن يكون وسيلة فى نيل ما يرغبه

من معونة الحكومة الفرنسية لانشاء مدرسة فى لبنان . فقال له صديقه ان ما تخيلته ان فرنسا لا تساعد أحدا دون مقصد وغاية وان الحكومة الفرنسية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة فى سلطتها ، لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها لبعثات التبشير . ومضى هذا السورى المقيم فى باريس يقول لصديقه ان كنت تريد انشاء مدرسة دينية ساعدتك فرنسا والا فارجع واشتغل بما يصلح لشأنك الخاص . فرجع الشاب خائبا » .

وأراد محمد عبده من ذلك أن يؤكد لهانوتو ان فرنسا اتخذت من التبشير ومن تصدير السياسة الدينية وسيلة للسيطرة على البلاد الاسلامية وليست الدولة العثمانية هى صاحبة هذه السياسة .

وبعدها مضى محمد عبده يحمل قلمه دفاعا عن تلك البلاد التى سعى المستعمر الفرنسى لتوطيد اقدامه فيها وفى مقدمتها الجزائر . فجاءها سنة 1902 وقد مهدت مجلة المنار لزيارته فاستقبله اهله استقبالا حافلا خالدا . وكون مجموعة من المريدين فى مقدمتهم الشيخ عبد الحليم بن سماية ومحمد بن مصطفى خوجة الذين تتلمذ عليهما امام الجزائر المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى بلغ اعجابه بالامام درجة لا حاجة بى الى سرد حديثها فى هذا البحث .

وكان الامام رحمه الله يريد السفر الى المغرب وحادثه تلميذه رشيد رضا فى ذلك ولكن لم تتم هذه الزيارة وان كان قد اتصل به عدد من ابناء هذا البلد الشقيق فى مقدمتهم الشيخ المهدى الوزانى .

أما صلته بالامير عبد القادر والرسائل التى تبودلت بينهما وما كان يعلقه الامام على جهاد الامير وحزنه الكثير على وفاة هذا المجاهد الذى رفع السيف فى وجه المستعمر الفرنسى فقد تناولته فى عدد من أعداد المجاهد الثقافى . وآمل فى بحث قادم باذن الله أن أتناول دور رشيد رضا وكتاباته وأثرها فى الجزائر والله الموفق .

منشـــورات

وزارة التعليـم الاصـلى والشؤون الدينيـــة



بعض الوثائق الاسبانية

المتعلقة بتاريخ المغرب العربى فى القرنين الثانى عشر والتاسع عشر/الثانى عشر والثالث عشر من الهجرة

د. ميكال دى ايبالزا
أستاذ بجامعة مدريد (اسبانيا)



قد رتبت هذه الدراسة فى ثلاثة فصول :

أولا : بعض مشاكل التسميات بين مؤرخى تاريخ اسبانيا الاسلامية التى هى قسم من المغرب العربى الاسلامى فى القرون الوسطى .

ثانيا : الوثائق المهمة فى اسبانيا للدراسات حول الفترة فيما بين السنة 1780 يعنى المعاهدات السلمية بين اسبانيا والدول الاسلامية فى البحر الابيض المتوسط والسنة 1830 يعنى الاحتلال الفرنسى للجزائر .

ثالثا : كمثال لثروة الوثائق الاسبانية فيما يتعلق بهذه الفترة التاريخية ، أقدم هنا ثلاثة نصوص مختصرة .

أولا : كيف يستعمل المؤرخون الاسبان الاسماء التى يشيرون بها الى المغاربة ·

1) فيما قبل الاسلام يسمونهم " Africanos " أو " Mauritanos "

2) عندما يتكلمون عنهم فى القرون الوسطى " Norteafricans " أو " Berbères "

3) فيما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر الميلادى هم berberiscos أو Moros

4) والمغاربة فى وقتنا الحاضر يطلق عليهم اسم Magrébies أو ينسبونهم الى أوطانهم الاصلية (تونس أو الجزائر أو المغرب الاقصى أو ليبيا) ·

والاسبان بالجملة يسمون المغاربة Moros فى الكتب الادبية الاسبانية وفى الحديث اليومى الشعبى ·

ثانيا : الكلمة " Moriscos " لا تترجم بـ " Mauresques " أو مغربى : " Moriscos " بل هم آخر المسلمين فى اسبانيا تحت الحكم والعادات المسيحية حتى هجرتهم الاخيرة فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى ·

رابعا : " Aljauriado " هو أدب المسلمين الاخيرين فى اسبانيا باللغة الاسبانية لكن بحروف عربية ، ويلزم أن نسمى هذا الادب أدبا بالاسبانية فحسب ·

وأخيرا : أندلسيا كل ما يتعلق بالاندلس يعنى اسبانيا المسلمة ، ويلزم أن نكتب دائما بالفرنسية بسين فى آخرها ولا " Andalou "

2 الوثائق الاسبانية

منذ أكثر من أربعين سنة انعقد فى الجزائر مؤتمر حول تاريخ الجزائر ولكن الظروف السياسية التى انعقد فيها هى غير الظروف فى الوقت الحاضر ، وفيه أحد المحاضرين الاسبان Ortiz de Montalban قدم محاضرة عنوانها : الوثائق الجزائرية فى Simancas وانه من الممكن عند بحث هذا الموضوع أن تضيف له معلومات جديدة ·

لكنى لا أريد أن أتكلم عن الوثائق أو النصوص التى فى المخطوطات العربية من القرون الوسطى ، و El-Escorial هى أكبر مكتبة فى اسبانيا فى هذا النوع من الوثائق ·

أيضا لا أريد أن أبحث فيما يتعلق بالعلاقات بين الدول المسيحية والمغرب ، وتجد فى بعض المكتبات وثائق مهمة كالوثائق Covona de Avafou أى فى برشلون المعروفة ٠

فيما يتعلق بالمدن المحتلة فى القرن السادس عشر أو فيما بعد حتى وقتنا الحاضر ، والوثائق فى Simancas مهمة جدا ٠

وتجد أيضا وثائق أخرى مملوءة بالاخبار حول الحروب بين المغاربة والاسبان أو حول افتداء الاسرى أو حول العلاقات التجارية القائمة فى البحر الابيض المتوسط ٠

وانما نقتصر اليوم على الفترة التاريخية للمعاهدات السلمية بين اسبانيا والـدول الاسلامية يعنى المغرب الاقصى ، تركيا ، طرابلس المغرب ، الجزائر وتونس وهى فترة غنية للمؤرخ لانه فيها تغير تماما الوضع السياسى بين الطرفين بسبب التغيير الفكرى العام فى البلاد ، ولحروب نابوليون فى اسبانيا ٠

وبالنسبة للدول الاسلامية صارت سياستها الخارجية وخاصة تجاه أوروبا معقدة فى البحر الابيض المتوسط ولهذه الاسباب أصبحت العلاقات الاسبانية المغربيـــة علاقات سلمية بشكل عام ٠

والآن هذه الوثائق الاسبانية المهمة المتعلقة بهذه الفترة هى :

1) الوثائق العامة فى سيمانكس Archivo general de Simancas وفيها وثائق الدولة الرسمية وخاصة وثائق القرن الثامن عشر ٠

2) الوثائق التاريخية الوطنية فى مدريد Archivo historico national وتتضمن وثائق الدولة الرسمية بعد 1800 ٠

3)وثائق وزارة الخارجية Archivo del ministerio de Asun tos exteriores فى مدريد وخاصة بعد سنة 1822 ٠

4)معهد الدراسات الافريقية وبه وثائق حول المغرب الاقصى بداية من سنة 1860 ٠

5) الوثائق العامة العسكرية فى سيقوفيا Archivo general militar المتعلق بالتاريخ العسكرى والحمايات الاسبانية فى المغرب العربى ٠

6) وثائق وزارة البحر فى « الفيسو » Mused del ministerio de marina Elviso (Livdal Real)

7) الوثائق الاقليمية الخاصة بسواحل البحر الابيض المتوسط وبالمناطق الغربية الجنوبية لاسبانيا ·

وتتعلق كل هذه الوثائق خاصة :

1) بالسياسة الاسبانية تجاه المغرب العربى ·

2) بالسياسة الديبلوماسية المغربية المتعلقة ببعض الدول الاخرى ·

3) الحوادث المهمة فى المغرب العربى ·

4) القرصنة فى البحر الابيض المتوسط وما كان لها من تعاقدات وخاصة من النواحى القضـــائية ·

5) التجارة فى البحر المتوسط بشكل عام وخاصة التجارة بين اسبانيا وبلدان المغرب العـــربى ·

6) وأخيرا تنقل شخصيات متعددة جدا خاصة رجال البحر ورجال الحرب ورجال الدين والاسرى من جميع الانواع ·
مــــدريد :

3 وأقدم لكم الآن ثلاثة نصوص غير منشورة مستخرجة من وثائق الخارجية فى مـدريــــد :

أ) يوميات القنصلية الاسبانية الاولى فى الجزائر من 1786 الى 1820 (مخطوط رقم 1066) المحتوى عـــلى :

1) تعليمات وزير الخارجية القدير لشارل الثالث وهو كونت (فلوريدا بـلانكـا) الى أو قنصل اسبانى فى الجزائر (1786) ·

2) ارتقاء حسن داى الحكم والهدايا الاسبانية له بهذه المناسبة (1791) ·

3) المفاوضات بين الجزائر واسبانيا حول المرسى الكبير ووهران ؛ وتخصص وكيل تجارى اسبانى فى الجزائر · والنفقات الناتجة عنهما (1791) ·

4) تولى مصطفى داى الحكم والهدايا الاسبانية له بهذه المناسبة (1798) ٠

5) الخلاف بين القتصل الاسبانى ونائب القنصل (1799م) ٠

6) المغامرات التى خاضها القنصل الاسبانى فى خصوص سفينة حربية جزائرية استولى عليها اسطول اسبانى فرنسى وكانت فرنسا فى حرب مع الجزائر ، وبعد تخليص السفينة الجزائرية بمساعى من الحكومة الاسبانية استولى عليها البرتغاليون الذين كانوا أيضا فى حرب مع الجزائر واعادة تخليص السفينة وارجاعها الى الجزائر صحبة البحارة الجزائريين الذين كانوا مسجونين فى برست Brest بفرنسا ٠ وكان كل ذلك تبعا لمعاهدة السلم بين الجزائر واسبانيا (1799 ـ 1800) ٠

7) صعوبات القنصل الانجليزى بسبب يهود الجزائر حسب رأى القنصل الاسبانى الجديد ، وتشير الوثائق الاقدم الى ودية العلاقات بين يهود وهران والجزائر والدبلوماسين الاسبان لمصالح اليهود الجزائريين فى اسبانيا (1802 ـ 1805) ٠

8) تولى حامد بن على الرابع السلطة والهدايا الاسبانية له وتوسيمه بوسام اسبانى لهذه المناسبة (1805) ٠

9) توسيم الداى حامد والقنصل الاسبانى واحتفالات الدبلوماسية بهذه المناسبة (1806) ٠

10) مبايعة الاسبان فى الجزائر للدستور الملكى الاسبانى فى السنة (1812) ٠

11) مبايعة الاسبان فى الجزائر وفى باية قسنطينة وباية معسكرة للدستور الملكى الاسبانى فى سنة (1820) ٠

ب) تقرير حول الوضع الدبلوماسى الاسبانى مع الدول المغربية فى سنة (1712) ٠

يقول التقرير بشكل عام أن الادارة الاسبانية لم تدفع مرتبات القناصل ولا ميزانيات القنصليات سنوات طويلة بسبب حروب نابليون ٠ فيتحدث عن صعوبات القناصل المالية بسبب مطالبة الدائنين والحكام المغاربة بالهدايا التى تعودوا الحصول عليها ٠ ومفصلا :

الجزائر : ديون القنصلية الاسبانية فى الجزائر لعائلة البكرى اليهودية فسبب لها صعوبات كثيرة ٠

طرابلس : لم تتحصل القنصلية على ميزانياتها وكذلك القنصل منذ سنة 1805 وكذلك طلبات الدائنين وباشا طرابلس .

تونس : علاقات ودية ممتازة لان الباى يكفيه دفع ولو جزئيا واشارة الى حسن العلاقات مع اسبانيا وتنكر لفرنسا .

المغرب الاقصى : علاقات ودية رغم سجن السلطان لبعض الاسبان الذين يصدرون الحبوب الغربية بطريقة غير رسمية فى منطقة الريف .

والخلاصة كان على اسبانيا أن تدفع كل ما يطلبها الحكام والدائنون المغاربة لان اسبانيا فى حاجة الى السلم أكثر من حاجة البلدان المغربية اليه .

ت) تسعة نصوص حول طلبات باى وهران من اسبانيا زمن ثورته ضد داى الجزائر سنة 1812 (ثمانية منها بالاسبانية وواحدة بالعربية) فى عموم العلاقات السياسية بين الدول المغربيــــة .

- استعداد الجزائريين لغزوات ضد تونس .
- ثورة باى وهران والقضاء على الاطراك فى منطقة وهران .
- اقتراض من الاسبان لاعانة سلطان المغرب لباى وهران وطلب الباى للاسلحة من اسبانيــــا .
- بيع البارود من السلطة العسكرية بقرطاجنة الى باى وهران بواسطة تاجر يهودى لحاجتهم الى المال .
- رفض الحكومة الاسبانية اعانة باى وهران .
- انتهاء ثورة باى وهران .
- الهجوم البحرى الجزائرى ضد تونس ونتائجه .

وأخيرا أقدم لكم أهم المصادر المطبوعة فى اسبانية حول هذه الفترة التاريخية (يعنى من نهاية القرن الثامن عشر والنصف الاول للقرن التاسع عشر) تجاه العلاقات الاسبانية الجزائرية فحسب .

شــواهــد مــن حضــارات عــالــم البــحــر الابــيــض المــتــوسـط

د. هشــام الصـغـيـر
أستاذ سابقا فى جامعة الجزائر

الحديث عن البحر المتوسط حديث ممتع ، وبصفة خاصة بالنسبة لنا نحن الشعوب التى تعيش حول حوضه ، والتى ترتبط بهذا البحر باوثق الصلات ، منذ كان البحر المتوسط قلب العالم القديم ، ومهد الحضارة الانسانية . اليه نهرع فى الصيف لنغسل فى مياهه المنعشة تعب الشتاء ، وعلى شواطئه الساحرة ، وفى مناخه اللطيف ننسى لفترات ، هموم الحياة . وفوق أمواجه تنتقل مصالحنا وآمالنا وعلاقاتنا ذاهبة آتية .

وفى الحقيقة لم يكن الخطيب والكاتب الرومانى سيسرو مبالغا عندما قال عن عصره : « كانت العواصم والمدن تتوضع حول حوض البحر المتوسط كما تتوضع الكثير من الضفادع حول مياه الغدير ... » . بحول هذا الحوض الكبير ، وتحت سمائه الزرقاء المشرقة، تفتحت الحضارات المصرية، والفينيقية، والاغريقية، والرومانية، والعربية ...

وكانت مياهه وما زالت شاهدا خالدا تقص للاجيال ما دار عبرها من تفتحات وفعاليات ، وما احتوته اعماقها من مآسي وكنوز ٠

بدأت علاقة الانسان المتوسطى ببحره منذ أن صنع من الطوخر أو من جذع الشجرة أول مركب يستعين به على التنقل عبر مياهه ٠ ثم ازدادت الصلة مع تطور صناعة المراكب وتشييد المرافيء ٠ ونسمع ان الفينقيين كانوا أول من أجرى القياسات فيه قبل حوالى ثلاثة الاف سنة فقد كانوا يقيسون اعماق مداخل مرافئهم ٠ واتبعوا لذلك أسلوبا هندسيا فريدا فى بناء الارصفة البحرية ٠ اذ تركوا فتحات دائروية تحت خط الماء ، وضمن جدار الرصيف ٠ فكانت مياه الامواج تتكسر على الجدار ، ثم تندفع عبر الفتحات الى داخل المرفأ مولدة تيارا يخرج من مدخل المرفأ جارفا معه ما ترسب من الرمال فى القاع ٠ اضافة الى ذلك اتبع الفينقيون أسلوب بناء المرفأ المزدوج (1) ٠

أما المصريون فقد تميزت علاقتهم الباكرة بالبحر المتوسط بصنع السفن الكبيرة المسماة « سفن أعالى البحار » وذلك منذ عصر الملكية القديمة ٠ وهى سفن قوية قامت بتأمين المبادلات التجارية بين مصر وجيرانها ، وخاصة سكان الساحل السورى ، حيث تتوفر جذوع الاشجار الجيدة ، والمواد الاولية ٠ ولحسن الحظ حفظ الفراعنة فى قبورهم نماذج حقيقية أو مصغرة للمراكب التى صنعوها ٠ سواء لاغراض دينية أو تجارية ٠ وهى تنم عن جودة فى الصنع ، ومهارة فى التصميم ٠ وهنا لابد أن ننبه الى أن الفعاليات الاولى للانسان عبر البحر المتوسط كانت فعاليات سلمية تجارية ٠ ولقد تطلبت أعمال العمران الضخمة التى ازدهرت فى عهد الملكية القديمة ، من بناء الاهرامات والمعابد ، والمدافن ٠٠٠ تطلبت استيراد المواد الاولية : كالاخشاب ، والمعادن ، والحجارة النفيسة ، والزيوت ٠٠٠ الخ ٠ وبالتالى تأثر النشاط البحرى ، وصناعة السفن بهذه الفعاليات العمرانية الداخلية ٠ ويكفى أن نذكر بأنه تم فى عهد الملك صنفرو أول ملوك السلالة الرابعة (بناة الاهرامات) بناء ستين مركبا فى سنة واحدة ،

---

1) أنظر B. H. Warmington, Carthage, p. 114 ff., London 1960.

واستيراد اربعين مركبا آخر (2) • وان تتبع تطور صناعة السفن والملاحة البحريـــة في المتوسط لامر شيق بقدر ما هو هام ، يخرج عن نطاق هذا البحث (3) •

يبدأ اهتمام الانسان بالبحر المتوسط ككل جغرافى منذ أن قام اناكسيماندر الاغريقى Anaximander حوالى 550 قبل الميلاد ـ على الاقل ـ بوضع خارطـة للعالم المعروف أنذاك ، كان البحر المتوسط يشكل مركزه • ولا يستبعد أن يكون الملاحون الفنيقيون سبقوه فى هذا السعى بخمسة قرون ، غير ان اعمالهم لربمـا ضاعت مع دمار قرطاجة • وقد اعتمد نشاطهم الملاحى الكثيف فى المتوسط والاطلسى على ملاحظات جغرافية أكيدة ، يأتى فى مقدمتها استعانتهم بنجم القطب فى التوجه • وبينما يكاد اناكستيماندر ينجح تقريبا فى تحديد معالم وحدود حوض المتوسط الشرقى حتى شبه الجزيرة الايتالية ، نراه يعجز عن تصور الشكل الصحيح للحوض الغربى ، وخاصة أجزاءه الشمالية التى يرسمها مبسطة بشكل مثلث تقريبا ويتصور ان العالم يسبح فى المحيط •

مضت الآن حوالى 2500 سنة على محاولة اناكسيماندر الاغريقى وضع خارطة لعالم حوض المتوسط ، الا أن البشر لم يتوقفوا منذ ذلك الحين فى محاولاتهم المستمرة لدراسة هذه المنطقة الهامة من الكرة الارضية ، واشترك فى الدراسات علماء من مختلف الجنسيات • وقد تم مؤخرا لفريق من العلماء اكمال هذه السلسلة الطويلة بعد ان نجحوا فى تسجيل قياسات لقاع حوض المتوسط ، ساعدتهم على تخطيط خارطة لتضاريس حوضه كما لو كان فارغا من المياه • وبذلك أصبح للمتوسط خارطتان أساسيتان • واستعانوا فى عملهم بأحدث ما توصل اليه العلم الحديث من أجهزة : من صور التقطت بواسطة القمر الاصطناعى ، الى آلات تصوير خاصة بالاعماق ، وقلم يسجل على الورق تضاريس القاع بواسطة الموجات الكهربائية المرتدة •

تبين على ضوء الدراسات « التحت مائية » للبحر المتوسط ان حوضه يتألف اذا نظر اليه (بشكل عمودى) من ثلاث أجزاء رئيسية :

2) أنظر R. Armstrong, The Early Mariners, p. 22, London 1967.
3) سنعالج هذا الموضوع فى بحث مقبل .

1 ـ القاعدة القارية الصلبة : وتتراوح اعماقها حوالى 200 متر · وهى تشبه الارض اليابسة · وكانت القاعدة فى الماضى الجؤلوجى أرضا يابسة فى معظم أجزائها · ويختلف مدى امتدادها الافقى بالنسبة للشواطىء الحالية من منطقة الى أخرى · والملاحظ ان القاعدة القارية غنية بالثروات الطبيعية كالنفط والغاز الطبيعى ، كما هو الحال فى منطقة بحر الشمال ·

2 : المنحدر القارى : يمهد الى قاع البحر وعنده تنتهى القارة الافريقية فى الجنوب ، والاوروبية فى الشمال ، والآسيوية فى الشرق · ويهبط بانحدار قائم يتراوح بين 1500 ــ 5000 متر فى ماء البحر · وهذه منطقة عالم الاسماك حيث لا تعيش النباتات · وتبلغ ثروة المتوسط من الاسماك حوالى 540 صنفا بما فى ذلك سمك القرش ، ويزداد هذا العدد باستمرار بعد فتح قناة السويس ، وانتقال أكثر من عشرين نوعا جديدا من اسماك المحيط الهندى والخليج الفارسى الى مياه البحر المتوسط ·

3 ـ قاع البحر المتوسط : تتميز أرضية القاع بقشرة رقيقة نسيبا تفصله عن باطن الكرة الارضية (السائل النارى) · وبسبب رقة هذه القشرة وحددت كسور وشقوق فى وسطها ، اندفعت وتندفع عبر الزمن براكين وحمم فى منطقة المتوسط ، وخاصة فى منطقة البحرين التيرانى والايجى · هذه البراكين مثل « فيزوف » « واتنا » والزلازل الكثيرة التى عرفها تاريخ عالم البحر المتوسط كانت السبب فى دمار أو اختفاء عدد كبير من المدن والمراكز الحضارية الهامة مثل : كنوسوس 1450 ق · م فى جزيرة كريت ، هير كولانوم وبومبى (79 للميلاد) · وهنالك العديد غيرها من المدن والجزر التى خربتها البراكين فدمرت وضاع نهائيا كل أثر لها ، الا اذا تم للعلماء اكتشافها فيما بعد · وسنعود الى هذا الموضوع بالتفصيل فى الصفحات التالية ·

لعل أبرز ما يميز تضاريس قاع البحر المتوسط هو تلك الكتلة الكثيفة الهلالية الشكل ، التى تمتد بشكل قوسى مفتوح نحو الشمال ، لتصل بين جزيرة قبرص ، وقدم شبه الجزيرة الايتالية · وهى منطقة وعرة التضاريس يصل قاع المتوسط فيها الى أخفض عمق له 5120 مترا جنوب غرب البيليبونيز ·

وترتفع كتلة التضاريس المذكورة أحيانا الى 2500 مترا ضمن الماء ، وذلك جنوب جزيرة وددوس • بينما تكاد جزر بحر ايجة تشكل امتدادا للقاعدة القارية • والى الجنوب من قوس الكتلة المذكورة ، وعلى عمق يقارب 2000 مترا يصب نهر النيل ـ ولكن مياهه لا تضيع ـ خلافا لما قد يظن ـ فى مياه البحر المالحة مباشرة ، بل تندفع الى الاعماق عبر المنحدر القارى ، لتتابع رسم دلتا جديدة على قاع البحر بتفرعات تشابه تفرعات دلتا النيل الافريقية • ويشكل السطحى المندفع الى قاع المتوسط كتلة مخروطية اطلق عليها الجغرافيون اسم مخروط النيل •

خلافا لحوض المتوسط الشرقى ـ الذى يتميز باضطراب فى تضاريس قاعه ـ يكاد الحوض الغربى يكون منسجم المعالم فى قاعه ، وذلك اعتبارا من جزيرتى كورسيكا و ساردينيا • وتشغل القاع هنا بطحاء أطلق عليها اسم « البطحاء الباليار » باعماق تتراوح بين 2600 ـ 2800 مترا • كذلك يشكل نهر الرون مخروطا فى قاع المتوسط على عمق 1500 مترا تتفرع من ضمنه دلتا الرون الى مسافة بعيدة ، مشابهة لدلتا النيل • أما المسافة الفاصلة بين تونس وصقلية فيميزها فجوة ضحلة تعرف باسم « شايح تونس » والتي تتصف بعمق متوسط قدره حوالى 500 مترا (بين رأس بون وصقلية الغربية) •

واقـع ميـاه المتوسط :

يختزن حوض المتوسط كمية من الماء المالح تقارب 4،1،8،000 كيلومتر مكعب من الماء • هذه الكمية الضخمة تنتشر فوق ساحة من الارض لا تجاوز 20٪1 بالمئـة من مساحة جميع البحار فى الكرة الارضية • وبالمقابل يتبخر فى كل ثانية حوالى مائة ألف طن من مياه المتوسط ، وهو نزيف خطير ، نظرا لقلة تهاطل الامطار أو ندارة الانهار الكبرى التى ترفد المتوسط بمياهها • هـذه المواد لا تعوض أكثر مـن 3٪1 الماء المفقود عن طريق التبخر • لذلك يلاحظ ان التوازن يكاد يكون معدوما ، لولا ما يتدفق من مياه المحيط الاطلسى عبر مضيق جبل طارق ، حيث تندفع مياه الاطلسى عبر مضيق جبل طارق بسرعة تقارب 5،6 كيلومترا باتجاه الشرق ، فتعيد ملء حوض

المتوسط • وبالمقابل يحدث بسبب اختلاف نسبة ملوحة الماء التي تبلغ 39 غراما من الملح في الليتر من مياه الحوض الشرقي (4) ـ يحدث تيار ماء معاكس يزحف عبر مضيق جبل طارق نحو الاطلسي ، وذلك ان الماء المالح ثقيل ويرسب بالتالي نحو الاسفل • وقد أمكن التثبت من وجود مخلفات مياه المتوسط المالحة على مبعدة 3500 كيلومتر من شواطىء المحيط الاطلسي في قاع المحيط •

البحر المتوسط حوض بلا مياه :

لنتصور الآن ان عملية التبخر الهائلة تتابع عملها فوق سطح المتوسط دون أن يجد البحر موارد لتعويض ما يفقده • ويمكن بعملية حسابية تحديد المدة التقريبية اللازمة ليفقد المتوسط ثروته من المياه • وعندها يمكننا ان نتصور الوضع الجديد الذى سيطرأ على ظهر الكرة الارضية • اذ ستتصل القارات الافريقية ـ الاوروبية ـ الآسيوية من جديد • وستتدافع شعوبها نحو امتلاك أكبر مساحة ممكنة من الرقعة الجديدة أو ستزول الحواجز الطبيعية التي تفصل بين العروق والحضارات •••

مثل هذه الفكرة العجيبة راودت قبل أربعين سنة مخيلة المهندس الالماني هيرمان سوجل H. Sorgel ولكن بشكل آخر • فقد اقترح اغلاق البحر المتوسط عند مضيق جبل طارق ، وعند جاليبولي (الدردينل) بواسطة سدود • وبذلك ينخفض منسوب مياه البحر المتوسط مئة متر أو أكثر • وعندها يمكن للدول المتوسطية ربح مزيد من اليابسة ، واستغلال الاراضي الجديدة • وقد اطلق على المشروع اسم " Atlantropa " ولكن لم يكتب له الحياة ، وطمر تحت غبار الارشيف •

طرح المهندس سورجل مشروعه من الناحية النظرية لكي ينشىء على ضفاف المتوسط عالما جديدا ترتبط به أوروبا بأفريقيا • وذلك عند الموضع الذى تتقارب فيه القارتان ؛ أي في صقلية وتونس • فيعود يابسة ذلك الجزء من القاعدة القارية ، مشكلا جسرا بريا بين القارتين • وكما نلاحظ ، لم يأخذ المهندس سورجل بعين الاعتبار ، الاعتراضات السياسية التي تقف في وجه اجراء تغيرات جذرية على الحدود الطبيعية • اذ ستبتعد

4) تبلغ نسبة الملح في مياه البالطيك سبعة غرامات في الليتر الواحد .

وفقا لمشروعه مدن المرافىء الشهيرة : كالبندقية ، ومرسيليا ، وبرشلونة ، نابولى ، بيرائيوس ، بيروت ، اسكندرية ، الجزائر ، وهران ... الخ عن شاطىء البحر ، وتتحول من مرافىء الى مدن برية تحيط بها مساحات من المزارع والاشجار .

البحر المتوسط مستودع تاريخى ـ حضارى :

من المؤكد ان فكرة تجفيف حوض المتوسط ستجد من الانصار مثلما ستجد من المعارضين ، فهى تهم الجيولوجى ، وعلماء الاحياء النباتية والحيوانية ، وعلماء المناخ ، ومنتجى النفط ، مثلما تهم المؤرخ وعالم الاجتماع والاجناس .

ولنقتصر على المؤرخ ، لانه يشكل صميم موضوع هذا البحث :

سيتم فى حوض المتوسط اذا ، لقاء المؤرخ مع جانب لا بأس بهمن أحداث خمسة الالف سنة من التاريخ البشرى ، على الاقل . هناك فى قاع قلب العالم القديم تتناثر بقايا ثمينة من التاريخ الانسانى : فعلى الخط الممتد مثلا بين دلتا النيل وجزيرة كريت وجزر بحر ايجه والبر الاغريقى ، ترقد المراكب الغارقة التى كانت تنقل أثمن ما أنتجته حضارات هاتين المنطقتين من سلع وافكار . وعلى مقربة من شواطىء دلتا النيل بقايا مراكب واسلحة « شعوب البحر » الذين دمرت اندفاعتهم العاصفة على مدن المتوسط الشرقى حضارات بأكملها . أما فى الحوض الغربى فهنالك بقايا من مراكب « أسطول ترشيش » الفنيقى التى تولت نقل المواد الخام من فضة ، وقصدير ، ونحاس ، وذهب من أقصى المتوسط الغربى ومن انكلتره وافريقيا الاستوائية الى المدن السورية المزدهرة فى أقصى المتوسط الشرقى . وفى قاعه الغربى ترقد أيضا حطام الاساطيل الحربية الاغريقية ـ الفنيقة ـ الرومانية التى شهدت مياه المتوسط صراعها المرير الطويل ، خاصة خلال الحروب البونية ـ فى سبيل السيطرة والسيادة على مقدرات وموارد هذه المنطقة .

بالاضافة الى المراكب الحربية هنالك حمولات المراكب التجارية الغارقة ، من جرار زيت الزيتون ، وأوانى اغريقية للطيوب وللخمور ، مزينة بصور من الميثولوجيا الاغريقية ، وأعمدة رخامية ملونة ، وتماثيل لكبار الفنانين ، وتوابيت حجريـــة

ومرمرية ، وحلى وسلع نفيسة صنعت فى مراكز الحضارة القديمة الشهيرة : كصور ، واثينا وكورنت وقرطاجة وروما ··· ولكنها لم تصل الاسواق التى استوردتها ، بسبب العواصف أو القرصان · هذا اذا لم نذكر المواد القابلة للتلف ، كالاقمشة الصوفية الجميلة المصبوغة بالارجوان ، والسجاجيد الجميلة ، والمصنوعات الجلدية والعاجية ··· وغيرها كثير ·هنالك فى قاع المتوسط بقايا معركة « ذات السوارى » ، وسفن الغزو الصليبى ، ثم حطام آمال نابوليون بونابرت قرب أبى قير · وعبر المتوسط تنتشر بقايا اساطيل المستعمرين ، والفاشيين وطائراتهم الذين أرادوا اعادة المتوسط « بحيرة رومانية » ، مثلما تنتظر مياهه حطام أساطيل المستعمرين الجدد وطائراتهم · لقد رأى البحر المتوسط سفن الغزو متجبرة عند قدومها ، وراقبها ذليلة عند تقهقرها ، وهذه وتلك ترقد عبر السنين فى قاع المتوسط ، يأكلها الصدأ وتغطيها الاعشاب وتعشعش ضمنها الاسماك ·

انقاذ البقايا الحضارية التاريخية فى حوض المتوسط :

انه لمستودع حضارات عجيب ، يندر العثور على مثله فوق سطح الارض · اذ ان يد الانسان التى تفوق يد الطبيعة أحيانا ، فى التشويه والتدمير والابادة ، لم تصل اليه بعد ، الا عبر « علم » آثار ما تحت المياه "Archéologie sous-marine" وهو علم حديث ذو منهج دقيق ، اسفر رغم حداثة عهده عن نتائج هامة للتاريخ البشرى · ويكفى هنا أن نستشهد بأول تجربة افتتح بها هذا العلم نشاطه فى مضمار انقاذ البقايا التاريخية من قاع المتوسط ·

ففى عام 1907 عثر ملاحو مركب اغريقى لصيد الاسفنج على حطام مركب يعود الى القرن الاول قبل الميلاد · غرق قرب مدينة المهدية من الشاطىء التونسى ، واستقر على عمق ار ـ مترا فقط من سطح المتوسط · وقد تبين بعد انقاذ حمولته الثمينة : من أعمدة معابد وتيجان ، وتماثيل برونزية وغيرها من المواد الهامة التى ملأت ست غرف فى متحف تونس « باردو » تبين أن المركب الغارق كان من بين المراكب العديدة التى حملها القائد الرومانى سوللا Sulla (عدو يوغرطه) غنائمه ومنهوباته من كنوز معابد أولمبيا ودلفى وابيداوروس والمدن الاغريقية اثر حملته المدمرة الى الشرق ·

وقد ضل أحد هذه المراكب طريقه بفعل عاصفة حرفته عن مساره الاصلى نحو ايتاليا ، ودفعته نحو الجنوب ليتحطم قرب الشاطىء الافريقى · ويمكننا تصور أهمية الوثائق التاريخية التى احتواها هذا المركب · فهى لم تكن من عصر واحد أو بلد واحد ، بل كانت مجموعة ثمينة أهداها الاغريق معابدهم ، واحتفظوا بها فى بيوتهم · ثم جـاء الغازى سوللا ليرسلها غنيمة حرب الى روما عاصمة المتوسط الجديدة · ولولا غرق بعضها ، لربما ما سمعنا عن هذه الوثائق التاريخية الهامة ، ولربما ضاعت كآلات غيرها خلال الحروب وعبر السنين (5) ·

هناك حطام سفينة أخرى عثر عليه عام 1958 قرب الشواطىء الجنوبية الغربية التركية عند رأس Gelidonya ويطلق العلماء اليوم هذا الاسم على المركب وحمولته أما المركب فهو من عهد أبكر يعود الى حوالى 1200 قبل الميلاد · وكان يحمل حوالى طن من المعادن التى تتالف من 43 سبيكة كبيرة من النحاس ، وسبائك أخرى صغيرة ، وبقايا من سبائـــك من الزنك · وقد اختلط بهذا الحطام مئـات الادوات البرونزية التى نقلت للمتاجرة بها فى صناعة الخشب ونت الحجارة · وتوحى هـذه اللقى وغيرها بأن السفينة كانت سورية ، ملأت حمولتها من جزيرة قبرص الغنيـة بالمعادن ، ثم انطلقت باتجاه الغرب حيث فاجأتها العاصفة واغرقتها 0 مثـــل هذه السفينة تساعد الى حد كبير على القاء الضوء على الدور الهام الذى لعبتـــه تجارة « المواد الخام » فى سياسة واقتصاد دول المنطقة · مثلما توضح آثارها على التطـور الحضارى والصناعى فى عالم البحر المتوسط القديم (6) ·

أما المركب الذى عثر عليه علماء جامعة بنسلفانيا قرب شـــواطىء مدينة تارنت ـ جنوبى ايتاليا ـ فقد ساعد العلماء فى بحثهم حول تجارة الرومان بالمواد المعمولية : من أحجار الرخام والغرانيت والبورفير · اذ عثر ضمن حطام المركب على 22 تابوتا من الرخام لم ينته صنعهـا بعد · ثم عثر عام 1964 عـلى حطام مركب آخر تضمـــن

---

5) أنظر H. P. Eydoux, « A la recherche des mondes perdus », pp. 260-262, Paris 1967.
6) أنظر G. F. Bass, « The UNESCO Courrier », May 1972, pp. 8 - 13, fig. 15

18 تابوتا و 23 كتلة حجرية أعدت للنحت • وتمكن علماء آثار ما تحت المياه من انتشال هذه اللقى بالاضافة الى أجزاء خشبية من ألواح المركب ، وأوانى فخارية وقطع نقود ••• ساعدت جميعها على تاريخ عهد المركب وحمولته بأواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث للميلاد •

يتبين من الامثلة المتقدم ذكرها ، ان قاع البحر المتوسط يحتوى شواهد على درجة كبيرة من الاهمية ، ويقدم للباحثين فى التاريخ السياسى والحضارى والاقتصادى ••• مفاتيح لمشاكل كانت تعتبر الى وقت قريب ألغازا محيرة • هنا يجدر بنا أن نتساءل : ترى هل يقدم البحر المتوسط بالمثل مفتاحا لأكبر وأغمض لغز عرفه التاريخ البشرى ، وهو مصير وموقع الجزيرة المفقودة المسماة الاطلانطيس ؟

لغز مملكة الاطلانطيس المفقودة وعلاقته بشمال افريقيا :

نشر الفيلسوف الاغريقى افلاطون (427 ق• م•) لأول مرة اخبار مملكة الاطلانطيس أو الجزيرة الضائعة ، وذلك فى كتاباته المسماة « قريتياس » و « تيحايوس » • واستند فى ذلك على معلومات ومرويات قديمة جدا يقال بأن كاهنا نقلها الى جد قريطياس تلميذ سقراط ، وعبر الاخير الى تلميذه افلاطون • ومفادها « ان جزيرة اطلانطيس كانت تقع غربى اعمدة هرقل (جبل طارق) ، وكانت تحتوى معبدا للآلهة اثيناتريتونيس » • ويقول افلاطون فى كتابه تيمايوس : « حدثت زلازل عنيفة وفيضانات ، وفى يوم واحد وليلة من الحظ التعس ، غرق جميع محاربيك ، واختفت جزيرة الاطلانطيس بصورة مماثلة فى أعماق البحر • ولهذا السبب فان البحر فى هذه المناطق لا يمكن اجتيازه ، ولا اختراقه نظرا لوجود تجمعات من الطين ••• » •

منذ أن كتب افلاطون هذه الكلمات ، وعبر القرون التالية ، ما فتىء الناس والعلماء فى أرجاء الارض يبحثون عن سر الجزيرة الضائعة ، ويحاولون تحديد مكانها • وقد حرر حول هذا الموضوع آلاف الكتب والمقالات • وانطلقت بعثات عديدة وضعت نصب أعينها العثور على الجزيرة العتيدة ، وكان من أشهرها بعثة ترأسها الكولونيل فوسيت Faucett الانجليزى • غير أن البعثة التى توجهت الى غابات الامازون ضاع

اثرها هناك • ومع ذلك لم يفقد الناس الامل ، وخاصة بعـد أن كتب شـــلايمان H. Schleimann قصته المثـيرة عام 19ı2 بعنوان : « كيف اكتشفت جزيـرة الاطلانطيس ، نبع كافة الحضارات » • والناس ما زالوا بين مصدق ومكذب للاسطورة شـأن ما لقيته أسطورة مدينة طروادة ، وشخصيـة الشاعر هوميروس ، أو شكسبير من جدل عنيف طويل فى الاوساط الاكاديمية والشعبية •

اختلف الناس حول تحديد موقع جزيرة الاطلانطيس : فبعضهم وضعها فى شمال افريقيا ، أو فى القوقاز ، أو فى جزر الآزور والكنارى ، أو فى جبال الاندلس ، والبحر البالطيكى ••• الخ • كما نسب بعض خبراء العروق البشرية ميلا والعرقين الاسبانى والايتالى الى جزيرة الاطلانطيس • وبالمثل حاول أحد الفلاسفة من مؤيدى هتلر ، أن يعيد أصل التفوق الآرى الى القارة الاطلنطية المجيدة ، وحدد موقعها على مبعدة أميال من الشاطىء الالمانى !! (7)

ويحلوا لكثير من الخبراء أن يحددوا موقع الجزيرة فى وسط المحيط الاطلسى •

فتكون جسرا بين العالم القديم والجديد ، يسـاعد عـلى تفسير التشابهات المثيرة القائمة بين الثقافتين المصرية والهندية ـ الاميركية • ويستندون فى ذلك على ولع كلا الحضارتين بالابنية الهرمية الشكل • رغم انهم يتناسون الفاصل الزمنى الكبير ، والاختلاف الوظيفى بين أوابدها • (8) وفى أوائل القرن العشرين قام العالم الالمانى بورشاردت P. Borchardt بتحديد موقع الجزيرة قرب مدينة قابس فى الاراضى التونسية ، عند مصب نهر تريتونيس (شط الجريد) ، الذى كان متصلا بالبحر عند خليج السيرت الصغير • وأيده فى ذلك الرأى فيما بعد العالم هرمان A. Herrman الذى توصل الى أن منطقة تونس كانت تمارس صلة وثيقة مع سكان جزيرة كريت

7) انظر A. Gonzalez, Aramco, May-june 1972, p. 20 ff.

8) تعود أهم المدافن الفرعونية المسماة بالاهرامات الى عصر الملكية القديمة وخاصة بين 2650 ـ 2190 قبل الميلاد ، أما اهرامات الهنود الاميركيين (الازتيك) فكانت معابد ، يقدر عهدها اعتبارا من 1200 ميلادية .

ومع الاغريق الذين استوطنوا مناطق افريقيا الشمالية (9) أما المؤرخ جوليان Ch. Julien فيستخلص : « بأن شهرة ما رواه افلاطون فى كتابه تيمايوس معروفة • فمملكة جزر الاطلانطيس تكون حسب هذه الرواية بسطت نفوذها على ليبيا ، وحاولت غزو مصر وبلاد اليونان ولكن المياه غمرتها فى آخر الامر ... » (10) • وبالمقابل يحذر المؤرخ الالمانى ا• ماير E. Meyer بشدة تجاه كل محاولات تحديد موقع جزيرة الاطلانطيس ويقول بأنها مجرد قصة لا تثبتها مستندات تاريخية ولا طبيعية • (11) • ويماثله المؤرخ البريتينى E. Albertini فى الرأى ، بأن هذه القصة الفلسفية التى أثارت الكثير من التعاليق الغريبة ، أشد اتصالا بميدان علم الامراض العقلية (12) • ومع ذلك يحاول علماء آخرون نقض هذا الادعاء وتكذيبه •

فى الحقيقة تسمح النتائج الايجابية التى أسفرت عنها جهود باحث صبور محب للتاريخ هو هانريش شليمان فى الكشف عن مدينة طروادة (13) ـ التى اعتبرها الكثيرون مجرد أسطورة ـ تسمح للباحثين بأن لا يقطعوا الامل فى ظهور حقيقة الجزيرة المفقودة • وقد لاحت هذه البارقة وبشكل ملموس اثر أبحاث علمية مماثلة ، وان من بين ما يدفعنا للاهتمام بموضوع الاطلانطيس الصلة التى تربطها بتاريخ شمال افريقيا الباكر ، أى فى الالف الثانى قبل الميلاد • وهى فترة هامة ما زالت فصول من التاريخ المغربى تسبح خلالها فى ظلام (14) ، هذا بالاضافة الى التشابه الوثيق بين اسم الجزيرة واسم سلسلة جبال الاطلس المغربية (15) •

---

9) راجع M. Solignac, « L'Atlantide et le Sud Tunisien », revue tunisienne, 1931.

10) راجع خلاصة حول موضوع الاطلانطيس فى كتاب :
أحمد صفر ، مدنية المغرب العربى فى التاريخ ، ص 50 وما بعدها ، تونس 1959 .

11) جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ص 70 ، تعريب مزالى وسلامة تونس 1969 .

12) راجع H. Lamer, Woerterbuch d. Antike, S. 56, Stuttgart 1963.

13) راجع ش. جوليان ، نفس المرجع ص 70 .

14) راجع هـ. الصفدى ، هاينريش شليمان أو ميلاد علم جديد ، مجلة الاصالة ، العدد 12 ص 41 ـ 50 .

15) راجع حول نقص مصادر هذه الفترة مقال : هـ. الصفدى : أضواء جديدة على تاريخ المغرب ، مجلة الاصالة ، العدد 14 ـ 15 ، ص 99 ـ 110 .

من مبعدة 1900 ميلا • وان حجارة الخفان Pumice المتطاير انتشر
البحر على مسافة مئة ميل • وبالمثل تشكلت موجة هائلة من المياه اندفعت
السفن الراسية فى مرافىء أمريكا الجنوبية تحطم سلاسلها (16) • وبالمقابل
بركان جزيرة سانتوريني يكون أقوى بثلاثة مرات من البركان الاندونيسى • ف
دمر ما مساحته تسعة أميال مربعة من الارض ، فى حين لا يقل ما دمره بركان سانتوريني
عن احدى وثلاثين ميلا مربعا من أرض الجزيرة •

ولقد دفنت تحت طبقات رماد هذا البركان الرهيب أجزاء من الجزيرة بلـــغ ارتفاع طبقات الرماد المتوضعة فوقها حوالى 33 مترا • وكان من ضمن المعالم المدفونة مدينة من مدن الحضارة المينوسية التى عرفت أوج ازدهارها فى جزيرة كريت خلال الالف الثانى ق• م• وهذه المدينة التى اكتشفت مؤخرا تحت الرماد فيما تبقى من جزيرة سانتوريني ، يرجح أن تكون الجزء المتبقى من حضارة الاطلانطيس ، التى أخذت بالباب الاغريقى نظرا لرقيها الحضارى ثم اختفائها المفاجىء ونهايتها المفجعة •

قام باكتشاف المدينة المطمورة تحت الرماد ، والتى تسمى حاليا مدينة تيرا Thera عالم أمريكى تابع الى « معهد أبحاث المحيطات » واسمه جميس مافور J. Mavor اذ كان يجوب منطقة خليج سانتوريني بالسفينة المسماة chain المخصصـــة للابحاث البحرية ، مستخدما جهاز السونار Sonar لاعداد خارطة لقاع الخليـــج • وقد استهدف الحصول على دلائل تبرهن وجود معالم حياتية كان البركان دمرهـــا • وبالفعل اثبتت التحريات وجود هذه المعالم تحت مياه الخليج وعلى طول خط الشاطىء أما المدينة فقد سلمت من الفناء بفضل طبقات الرماد الكثيمة (17) التى ت
الاسمنت • وما ان بدأ علماء الآثار بالتنقيب فى ثيرا حتى ظهرت انقاض
الى النـــور •

---

(16) أنظر CLXXIV, داجر

(17) عثر الملاحون فى فتح قناة السويس على نماذج م
الجزيـرة .

محاولة جديدة لاكتشاف جزيرة الاطلانطيس :

فى كتابهما الجديد : « الاطلنطيس ، والحقيقة وراء الخرافة » ·
"Atlantis, the truch behind the legend"
حاول المؤلفان : ادوارد باكون ، و آ· ج· جالانوبولوس (16) ان يقدما البرهان المقنع بأن جزيرة الاطلانطيس لم توجد فى المحيط الاطلسى على الاطلاق ، بل كانت تقع على مبعدة قليلة من شواطىء اليونان الجنوبية · وبأن الجزيرة الاصلية ماهى الا جزيرة « سانتورينى » Santorini الواقعة على مبعدة 78 ميلا الى الشمال الشرقى من جزيرة كريت · وبأن حضارة الاطلانطيس حضارة متوسطية شرقية أصابتها يد الفناء فى ظروف غامضة فى حوالى منتصف الالف الثانى 1450 ق· م·

بواسطة الابحاث التى أجراها العالمان باكون وجالانوبولوس امكن تفسير الظروف التى أطاحت بالجزيرة ، بأن اندفاعة بركانية كثيفة هوت بمعظم جزيرة سانتورينى تحت سطح الماء · فنتج عن ذلك موجات عاتية انداحت عبر البحر المتوسط الى الشواطىء الشرقية منه ، ودمرت الحياة فى مدينة كنوسوس (العاصمة المنيوسية) فى جزيرة كريت المجـــاورة ·

هذا الانفجار البركانى يشابه الى حد كبير الانفجار الذى دمر مدينة كراكاتوا فى اندونيسيا عام 1883 · أما الجزر الصغيرة الخمسة التى تبقت من جزيرة سانتورينى الاصلية ، فانها تشكل بوضوح الاسوار الدائروية ، لمركز المخروط البركانى الــذى انفجر ثم هوى فى البحر · ولكى يتفهم القارىء ابعاد الكارثة التى أصابت جزيرة سانتورينى ، يعيد الباحثان المذكوران الى الاذهان ، بأن بركان كراكاتوا سمع انفجاره

---

16) يبدأ اطلاق اسم جبال الاطلس على السلسلة المغربية اعتبارا مــن عهد المؤرخ هيرودوت الذى يذكر فى تاريخه : « ··· قرب هذه الكتل من الملح يوجد الجبـــل الذى يسمى الاطلس Atlas وهو ضيق ومستدير من كل جهاته وشديد الارتفاع ويقال بأنه من الصعب رؤية قمته لان الغيوم لا تنقشع عنها أبدا لا أثناء الصيف ولا اثناء الشتاء . ويقول سكان البلاد بأن جبال الاطلس هى أعمدة السماء . والى هذا الجبل يدين هؤلاء الناس باسمهم لانهم يسمون بالاطلانطيين ... »

St Gselle, Hérodote, textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord, p. 23, Alger 1915.

لاحظ المنقبون فقدان الهياكل العظمية البشرية ، وغياب الحلى والمـواد الثمينة فى أطلال مدينة ثيرا . وهى ظاهرة لعلها تشير الى أن السكان شعروا بالخطر المهيمن على مدينتهم عندما رأوا الانذار الاول فى شكل اندفاعات دخانية أو تشقق فى قشرة الارض قبيل انفجار البركان . فسارعوا لركوب زوارقهم لاجئين الى المناطق الآمنـة ، وحاملين معهم أثمن ما يمكنهم انقاذه . هذه الظاهرة تكررت مرارا فى التاريـخ ، وخاصة فى تاريخ المناطق المعروفة باجتياح الزلازل والبراكين لها مثل : منطقـة بحر ايجه ، والاناضول ، وشواطىء المتوسط الشرقية ... الخ . وبالمقابل نجد ان اندفاع بركان فيزوف جاء مفاجئا لسكان مدينتى بومبى وهيركولانوم (79 . م) ، فلم يتح للكثيرين أن يفروا من الموت المحتوم . وهكذا بقيت جثثهم المتفحمة ، وممتلكاتهم محفوظة تحت طبقات الرماد والسائل البركانى ، حتى اكتشفها علماء الآثار مؤخرا .

الشواهد التاريخية فى جزيرة سانتورينى :

كنت أشرت فى بحث سابق نشرته مجلة الاصالة بعنوان « أضواء جديدة على تاريخ المغرب » (18) الى النتائج البالغة الاهمية التى اسفرت عنها الاكتشافات الاثرية فى مدينة ثيرا . واشرت خاصة الى الصور الجدارية الملونة التى عثر عليها العالم ماريناتوس سليمة فى أنقاض منازل المدينة . وتشير هذه الصور بالاضافة الى دلائل أخـرى ـ على احتمال قيام علاقات وثيقة منذ منتصف الالف الثانى ق. م. بين جزيرة سانتورينى (أو الاطلانطيس) والساحل الليبى المقابل والقريب . كذلك أشرت فى البحـث نفسه الى أن المغرب لم يكن فى عزلة عن التيارات الحضارية الكبرى ، بل يحتمل قيام المدن على شواطئه قبل تأسيس قرطاجة بقرون . أما مصادر هذه المرحلة الباكرة فنتوقع العثور عليها لا فى شمال افريقيا فحسب ، بل وفى أرجاء جزر وشواطىء البحـر المتـوسط .

---

18) راجع الملاحظة رقم 14 . والتقرير عن نتائج التنقيبات الاولية فى مجلة « تايم » العدد السادس عشر 1973 .

مما تقدم يمكن الاستشهاد بالمثل القائل : « لا دخان بدون نار » • فخلف الاساطير يكمن جانب ولو صغير من الحقيقة • ورغم ذلك لم تكن الغاية من معالجة هذا الموضوع اثبات أو نفى وجود جزيرة الاطلانطيس ، بل تقديم شواهد مقتطفة لما يتضمنه حوض البحر المتوسط من ثروات تهم المؤرخين وباحثى الحضارة • والفضل يعود الى الاسباب والمناهج العلمية التى يتبعها علم الآثار ، وعلم آثار ما تحت المياه فى انقاذ الشواهد ، والكشف عن مزيد من فصول التاريخ الانسانى ، أما العبرة كل العبرة فتكمن فى تحلى المؤرخ بروح البحث الموضوعى ، وعدم التسرع الى اطلاق ، أو نفى نظريات ومرويات قبل التوصل الى اسانيد مادية وكتابية • وعلى مستقبل البحث فى جزيرة سانتورينى ومياهها يتوقف البت فى أمر مملكة الاطلانطيس العتيدة •

الوطنيون العرب و نشاطهم السياسى و الصحفى فى المانيا

حتى نهاية الحرب العالمية الاولى (1)

د. ورنر أنده

استاذ فى معهد الدراسات
الشرقية بجامعة هامبورج
ـ جمهورية ألمانيا الاتحادية ـ



في عام الف وتسعمائة واربعة وثلاثين ، الف المستشرق الفرنسى هنرى بيريس فهرسا تناول فيه الرحالة العرب الذين قاموا بزيارات الى أوروبا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقد طبع هذا الفهرس فى القاهرة بعد الانتهاء من تاليفه ببضع سنوات . واذا ألقينا نظرة على هذا الفهرس فسوف نجد أن عدد العرب الذين كتبوا عن ألمانيا كان ضئيلا وخاصة فى القرن التاسع عشر . ولهذه الظاهرة أسباب عديدة ، منها أن ألمانيا لم يكن لها كيان سياسى متكامل حتى عام 1871 ، بل وحتى مملكة بروسيا وهى التى تمثل جزءا كبيرا من الدولة الالمانية بعد اتحادها لم يكن لها آنذاك علاقات تذكر بدول حوض البحر الابيض المتوسط ، سواء كان ذلك

(1) محاضرة ألقاها في المركز الثقافي الاسلامى [illegible] يوم 13 ربيع الثانى 1396 هـ بالعاصمة الموافق 13 افريل 1976 م .

دن الناحية السياسية أو الناحية الاقتصادية ، وكان ذلك هو السبب فى عدم تشجيع الرحالة العرب الى التوجه الى ألمانيا اذا ما قورن ذلك برحلاتهم الى أسبانيا أو فرنسا أو انجلترا • ويلاحظ أن اهتمام الكتاب والسياسيين والصحفيين العرب بشؤون ألمانيا قد بدأ يزداد بعد وحدة ألمانيا فى عام 1871 وخاصة فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر •

ونذكر على سبيل المثال الرحالة التونسى محمد بيرم الخامس الذى تعرض فى كتابه « صفوة الاعتبار » للكتابة عن برلين ، وكذلك العالم المصرى محمد أمين فكرى الذى وصف أيضا مدينة برلين فى كتابه « ارشاد الالباء الى محاسن أوروبا » وما زال هذان الكاتبان معروفين حتى الآن •

وعلى العكس من هذين الكاتبين فقد أهمل المؤرخون ذكر حسن توفيق المصرى الذى كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى معهد الاستشراق بجامعة برلين فى الفترة من 1887 حتى 1889 • وله كتاب اسمه « رحلة حسن أفندى توفيق أو الرحلة البرلينية » وكان فى ثلاثة عشر جزءا صغيرا نشرت تباعا فى مصر فى الفترة من عام 1305 حتى عام 1307 من الهجرة (يوافق 1887 حتى 1889 ميلادية) ، الا أن معظم أجزاء هذا الكتاب قد فقدت على ما يبدو ، ولم أر منها شخصيا الا جزءا واحدا فى أرشيف عائلة بسمارك بالقرب من مدينة هامبورج ، وقد تناول المؤلف فى هذا الجزء شيئا عن حياة بسمارك وعن تاريخ امارته • وللمؤلف أيضا كتاب آخر بعنوان « رسائل البشرى فى السياحة بألمانيا وسويسرا » ، وقد طبع فى مطابع بولاق سنة 1891 وقد بحثت عن هذا الكتاب ولكنى لم أعثر عليه حتى الآن •

أما عن رواد حركة استقلال مصر فقد اتخذوا باريس وسويسرا مقرا لهم ومنطلقا لكفاحهم ، وكانت لهم اتصالات بألمانيا فى نهاية القرن التاسع عشر ، وزار الزعيم مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى ألمانيا لهذا الغرض • وفى عام 1895 أشار مصطفى كامل وهو فى باريس على الخديوى أن يمده ببعض النقود للتأثير بها على بعض الصحف الالمانية لتقوم بالدعاية لمصر لمساعدتها فى نيل استقلالها من الاحتلال البريطانى ، ولكن الخديوى لم يستجب لهذا المطلب

وقد بدا للوطنيين المصريين أنهم يستطيعون استغلال سياسة التقارب السياسى بين ألمانيا والدولة العثمانية للتخلص من الانجليز ، لان تركيا هى الاخرى كانت تود التخلص من الانجليز على أمل أن تعود لها سيادتها على مصر ·

أما فيما يتعلق بالسياسة الالمانية آنذاك فتتضح من تلك الواقعة : عندما قام القيصر غليوم الثانى عام 1898 بزيارته للاستانة ودمشق والقدس ، أظهر تعاطفه مع المسلمين فى كل العالم ، وكان فى أثناء خطاباته ومناقشاته يعمد الى ابراز تلويحات واشارات رمزية أثارت لدى بعض العرب والمسلمين أوهاما توحى بأن ألمانيا تعمل من أجل مصالح المسلمين وشعوبها التى كانت ترزح تحت وطأة الاستعمار الانجليزى والفرنسى والروسى · وأقول هنا أوهاما لان الواقع الذى لا يحتاج الى أى ايضاح أن الدولة الالمانية فى ذلك الوقت كانت دولة عظمى وكانت هى الاخرى لها مستعمراتها وأهدافها الاستعمارية ، ولكن الذى ساعد على قبول السياسة الالمانية آنذاك أن الدول التى وقعت تحت الاحتلال الالمانى كانت بعيدة عن الدول الاسلامية وكان عدد المسلمين الذين يقطنون تلك البلاد ضئيلا ·

ولقد تحفظت دولة ألمانيا فترة طويلة تجاه تقديمها المساعدة للوطنيين المصريين فى كفاحهم لتحرير مصر ، حرصا منها على علاقاتها الطيبة مع بريطانيا التى كانت معرضة للنقد الشديد من قبل فرنسا بسبب احتلالها لمصر ·

ومن جانب آخر فكانت دولة ألمانيا حريصة على مصالح حليفتها تركيا فى حقها الشرعى فى السيادة على مصر ، وكانت ترى أن أى تقارب مع الحركة الداعية الى استقلال مصر كان سيؤدى الى اغضاب تركيا · الا أن هذا التحفظ من جانب ألمانيا أخذ بمرور الزمن يتغير رويدا رويدا وخاصة عندما تم التفاهم بين انجلترا وفرنسا عام 1899 على عدم المساس بمصالح فرنسا فى المغرب العربى ، وبالذات عام 1904 عندما عقدت بينهما الاتفاقية المسماة « بالحلف القلبى » entente cordiale والتى تقضى باعتراف فرنسا باحتلال انجلترا لمصر · فمن قبل ، كانت ألمانيا تساعد انجلترا ضد فرنسا فى احتلالها لمصر ، أما وقد اتفقت انجلترا مع فرنسا على الاحتلال فكان من الطبيعى أن أصبحت انجلترا فى غنى عن مساعدة ألمانيا لها ، وقد أدى ذلك الى أن

تقلب ألمانيا لانجلترا ظهر المجن وتمديد المساعدة للوطنيين المصريين وان كان هذا التقارب قد ظل يأخذ سمة الحذر حتى لا تثير ألمانيا بذلك غضب تركيا ومطامعها فى مصر.

وقد أدى نشوب الحرب العالمية الاولى أن تقوم السياسة الالمانية بدور ايجابى فى مساندة الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى وفى الهند ، وكانت المانيا تهدف من وراء ذلك الى تحقيق ما يلى :

أن الحكومة الالمانية والقادة العسكريين بها اذا استطاعوا تحريض الحركات التحررية فى كل من مصر والمغرب العربى والهند على الثورة فسوف تضطر كل من انجلترا وفرنسا على سحب أجزاء كبيرة من قواتها العسكرية وأساطيلها المرابطة فى أوروبا ، وارسالها الى مناطق الاضطرابات لاخماد الثورات بها فيسهل بذلك لدول التحالف « ألمانيا والنمسا وتركيا » تحقيق النصر على انجلترا وفرنسا فى أوروبا .

وفى خريف عام 1914 كتب السياسى والمستشرق الالمانى البارون ماكس فون أوبنهايم Max von Oppenheim الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية قسم الشؤون الشرقية ، كتب تقريرا بعنوان « اثارة المناطق الاسلامية ضد أعدائنا » . ومما جعل فكرة اثارة الشعوب هذه أقرب الى القبول أن تركيا كانت تطالب بأن يكون سلطانها خليفة على العالم الاسلامى كله . وقد تطلب هذا الهدف الاستراتيجى جمع معلومات دقيقة عن هذه الدول الاسلامية وبناء عليها توضع خطة ذكية للدعاية التى تؤدى الى التحريض على الثورة ، ورأت الحكومة الالمانية لتحقيق هذا الهدف أن تجلب الى ألمانيا بعض الوطنيين العرب ، وتجلب بالاضافة الى ذلك مكافحين من أجل الحرية من ايران والهند وغيرها .

وعلى أى فان العربى الذى استطاع أن يلفت أنظار الرأى العام اليه عند زيارته لالمانيا لم يكن من المغرب ولم يكن من مصر بل كان من لبنان ، ذلك العربى هو الامير شكيب أرسلان .

سافر الامير شكيب أرسلان فى صيف عام 1917 الى ألمانيا فى زيارة رسمية ، ثم سافر اليها مرة ثانية عام 1918 بصفته نائبا فى مجلس الامة العثمانى مبعوثا من الحكومة التركية . وكان عليه فى الرحلة الاولى أن يدرس الحالة السياسية والاجتماعية

فى ألمانيا وذلك بتكليف من وزير الحرب التركى أنور باشا ، أما الرحلة الثانيـــة فكانت تهدف الى تقريب وجهات النظر بين الحكومتين التركية والالمانية بشأن سياسة تركيا فى القوقاز • ومما يلفت النظر أن وزير الحرب التركى أنور باشا قد اختار لمهمة الوساطة بين الحكومتين التركية والالمانية عربى الاصـــل ، مفضـــلا اياه على ان يكلف أحد الاتراك للقيام بهذه المهمة •

ولقد استقبل شكيب أرسلان فى ألمانيا استقبالا حافلا وعومل معاملة خاصة ، وسبب ذلك أن الحكومة الالمانية قد رأت على ما يبدو فى شكيب أرسلان عنصرا عربيا هاما لمساندة وتقوية السياسة التركية تجاه الشعوب العربية • ولقد كانت ألمانيا تود توطيد علاقتها بحليفتها تركيا ورأت ما يتمتع به الامير من صلة وثيقة بالحكومـــة التركية ، هذا بالاضافة الى الصداقة المتينة التى كانت تربط شكيب بانور باشا ، فعومل لذلك أحسن المعاملة حتى ينقل عن ألمانيا صورة حسنة لانور باشا عند لقائه به مرة ثانية •

أما البارون أوبنهايم Oppenheim الذى كان صديقا للامير شكيب أرسلان مدة عشرين عاما فقد استغل هو الآخر نفوذه بالتمهيد لاستقبال شكيب أرســـلان استقبالا حسنا اينما حل فى ألمانيا ، سواء كان ذلك فى برلين او فى المدن الالمانية الاخرى أو فى مناطق الاحتلال الالمانى كبلجيكا وفرنسا ، وقد غطت الصحافة الالمانية أنباء تنقلاته فى عام 1917 كما نشرت خطبه ومقالاته • ويحدثنا شكيب أرسلان فى مذكراته التى طبعت أخيرا فى بيروت سنة 1969 تحت عنوان : « سيرة ذاتية » يحدثنا فيها عن انطباعاته وهو فى ألمانيا ، ولكن شكيب للاسف لم يشر فى مذكراته الا الى عدد ضئيل جدا من السياسيين الالمان والموظفين والعلماء الذين اجتمع بهم خلال رحلاته • ومما تجدر ملاحظته أن من بين الاعداد الضئيلة التى كتب عنها شكيب أرسلان فى مذكراته يوجد اسم رئيس بلدية كولونيا آنذاك ، ذلك الرجل الذى عين بعـــد ثلاثين عاما من لقائه به مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ألا وهو الدكتور كونـــراد أديناور Konrad Adenauer.

وكما سبق أن ذكرنا فقد جاء شكيب الى ألمانيا بصفته نائبا فى مجلس الامة التركى ، ورغم ذلك فيمكننا ان نعد شكيب أرسلان من الوطنيين العرب الذين كانوا يعملون من أجل القضية العربية ، والسبب فى ذلك ما يلى :

أن شكيب قد أصبح فيما بعد من المكافحين البارزين من أجل الوحدة والاستقلال العربى ، وكفاحه من أجل المغرب العربى معروف للجميع · ومما تجدر الاشارة اليه أن شكيب فى محادثاته الخاصة والعامة وفى مقالاته التى نشرتها له الصحف الالمانية لم يخف موقفه على أنه وطنى عربى · صحيح أن شكيب قد دعا آنذاك العرب الذين كانوا يعيشون داخل نفوذ الدولة العثمانية وخارجه دعاهم جميعا للدفاع عن هذه الدولة العثمانية ، وصحيح أيضا أنه وجه نقدا شديدا الى أنصار القومية العربية فى الحجاز ، الا أنه ليس من العدل أن يوصف موقف شكيب هذا على أنه خيانة للقضية العربية ، فلشكيب أرسلان الفضل فى لفت أنظار الرأى العام فى ألمانيا لاول مرة على مسألة القومية العربية من جانب وعلى الاخطار التى تكمن وراء قيام الشوفنية التركية (أى التغالى فى العنصرية التركية) من جانب آخر · وقد أتاحت له اقامته فى ألمانيا أن يبرز هذه المسألة بوضوح ، ولم تكن الفرصة مهياة له من قبل للاعراب عن وجهة النظر هذه وهو فى اسطنبول · ونستطيع ان نلمس هذا الموقف واضحا من المقال الذى وجد قبولا كبيرا فى ألمانيا والذى نشر عام 1917 فى مجلة « الشرق الجديد » Der Nene Orient التى كانت تهتم بوجه خاص بتطورات الموقف فى كل من آسيا وشمال افريقيا ، تلك المجلة التى يشرف عليها مكتب خاص تابع لوزارة الخارجية الالمانية ، وكان هذا المقال بعنوان : « ماذا تنتظره سوريا من الحرب » · وقد أشار شكيب فى هذا المقال الى أن غالبية الشعب السورى (وأعنى به منطقة الشام التى كانت تضم سوريا ولبنان وفلسطين والاردن) يتمنون أن تظل هذه المنطقة تحت النفوذ العثمانى ، ولكن ليس تحت الشروط الحالية ، بل تحت شروط تكفل احياء العروبة واللغة العربية · ولقد تبنى وجهة النظر هذه ايضا المتحمسون جدا لبقاء التحالف العربى مع تركيا ، والفرق بينهم وبين الداعين الى الانفصال نهائيا عن تركيا أن الاخيرين كانوا يعملون على بذر بذور الكراهية والحقد ضد

الاتراك • وكانت الكلمات التى يلقيها أتباع الشوفينية التورانية التركية (أى أتباع العقيدة التركية التورانية) فى اسطنبول والتى كانت تشيد بأمجاد جنكيز خان وتيمور لانك كانت تجسم فى الدول العربية صورة الاستعمار البغيض ، وقد مهد ذلك لانجلترا وفرنسا الطريق لكسب الكثير من الاصدقاء فى الدول العربية •

وفى المجلة السالفة الذكر أوضح شكيب أرسلان فى فبراير 1918 أنه رغم تحمسه لبقاء التحالف التركى العربى الا أنه مع ذلك ليس عميلا للاتراك ولا للالمان وليس تابعا لاى جهة ، ويبدو أيضا أن شكيب أرسلان قد أطلع الساسة الالمان على الاجراءات الطاغية التى يمارسها جمال باشا الحاكم التركى فى سوريا • وكان يبغى من وراء ذلك أن يستعمل الالمان نفوذهم لدى الاتراك لتخفيف وطأة هذه الاجراءات •

أما الوطنيون المصريون والمغاربة الذين أقاموا بالمانيا فى ذلك الوقت ، طالت مدة اقامتهم فيها ام قصرت ، فكانوا يساندون وجهة النظر الالمانية التركية بالتحريض على الثورة فى المحميات والمستعمرات الانجليزية والفرنسية •

ولقد كانت ألمانيا قبل الحرب العالمية الاولى هدفا لزيارة الوطنيين العرب • وعلى سبيل المثال فقد عاش الدكتور لبيب محرم ، رفيق مصطفى كامل فى الكفاح ، فى برلين لاجئا سياسيا وتوفى بها فى سبتمبر 1913 • ولكن لا يفوتنا ان نذكر أن معظم الوطنيين المصريين الذين طلبوا اللجوء السياسى قد اتخذوا سويسرا مقاما لهم ومن هناك شنوا ، أثناء الحرب ، حملاتهم فى الصحافة من أجل استقلال مصر • وقد فضلوا الاقامة فى سويسرا لعاملين هامين : الاول موقف سويسرا المحايد • والعامل الثانى هو وجود صحافة سويسرية حرة باللغتين الالمانية والفرنسية ، وكانت هذه الصحافة توزع على نطاق واسع فى كل انحاء أوربا • بل ووجد بعض هؤلاء الوطنيين مساعدة خاصة من فؤاد سليم الحجازى المصرى الذى كان صديقا لمصطفى كامل قبل وفاته والذى كان يعمل سفيرا لتركيا فى برن ، وبهذه المساعدات تمكن المكافح التونسى محمد باش حانبة من سنة 1916 حتى نهاية الحرب سنة 1918 وهو فى جينيف من اصدار مجلة المغرب Revue du Maghrib باللغة الفرنسية • ومن يود

أن يتتبع النشاط الصحفى والسياسى للوطنيين العرب وخاصة المصريين منهم فسوف يلمس ذلك بوضوح من سيل الرسائل المتبادل بين الوطنيين العرب وزملائهم فى كل من سويسرا وألمانيا وكذلك فى الزيارات المتبادلة والتنقلات المستمرة بين البلدين ٠ ولقد ظهر على سبيل المثال فى مجلة الشرق الجديد Der Nene Orient سالفة الذكر والخاضعة لاشراف وزارة الخارجية الالمانية عدد هائل من رسائل القراء ومن المقالات لهؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يعيشون فى سويسرا وكثيرا ما كان يصعب معرفة الشخصيات الحقيقية التى كانت تحرر هذه الرسائل والمقالات ، لانها كثيرا ما كانت تحمل أسماء مستعارة ٠

وجاء فى بعض هذه الرسائل كثير من الهجوم على الشاعر المصرى على الغاياتى الذى كان قد كتب قصيدة بعنوان : « وطنيتى » ونفى على أثرها من مصر حيث لجأ الى جينيف وأقام بها ، وكانت هذه الرسائل تتهمه بانه قد اصبح وهو فى سويسرا عميلا لدول التحالف انجلترا وفرنسا ٠ وفى هذه الرسائل ما يفيد بالمتاعب الكثيرة التى كانت تخلقها السفارة البريطانية فى سويسرا للوطنيين المصريين المقيمين بها بسبب عدم تجديد جوازات سفرهم ومنع وصول الاموال اليهم من ذويهم فى مصر) ٠ وتجدر بهذه المناسبة الاشارة الى كتاب حديث ظهر عام 1970 باللغة الالمانية لكاتب سويسرى مارك تريفتسجر Marc Trefzger يتحدث فيه مؤلفه عن الحركات الوطنية المصرية فى مرآة الرأى العام السويسرى ٠

واذا اردنا أن نفهم موقف الوطنيين المصريين فعلينا مراعاة ما يلى :

فى نوفمبر سنة 1914 دخلت تركيا الحرب متحالفة فى ذلك مع المانيا ، وردا على هذا الاجراء أعلن الانجليز خلع الخديوى عباس الثانى الذى كان يقوم فى هذا الوقت بزيارة للاستانة ونصبوا بدلا منه عمه حسين كامل سلطانا على مصر ، وأعلنوا بالاضافة الى ذلك فرض الحماية على مصر ٠

وقد أدى هذا الاجراء من جانب انجلترا الى حدوث تقارب جديد بين الحزب الوطنى وبين الخديوى عباس الثانى بعد أن كانت العلاقة بين الخديوى وبين الحزب الوطنى قد ساءت عقب موت الزعيم مصطفى كامل ٠

أما عباس الثانى فقد ترك الاستانة واتجه شطر فيينا ومن هناك سافر الى برلين للزيارة ·

ورغم هذا التقارب الجديد فلم يكن هناك تفاهم تام بين الخديوى والوطنيين المصريين وخاصة من الجناح المتطرف الذى كان يتزعمه الدكتور منصور رفعت · ولكن السياسة الجديدة كانت تقضى بأن يعلن الوطنيون العرب من حيث الظاهر فقط اتفاقهم مع الخديوى، وأن مصر ستظل جزءا من الخلافة العثمانية بعد انسحاب الانجليز منها ·

وقد تركز النشاط السياسى بالطبيعة على برلين ، فأنشأت احدى اللجان الوطنية لحزب مصر الفتاة ناديا فى برلين ، ويسرت الحكومة الالمانية بالتالى لهؤلاء الوطنيين سبيل الحصول على حجرات كبيرة وصالات فى بعض الفنادق لاقامة حفلاتهم ، كما وضع النادى العثمانى أيضا تحت تصرفهم · وفيما يلى أود أن أتعرض لابرز هؤلاء الاعلام :

1 ـ **محمد فريد** ، وقد خلف مصطفى كامل بعد وفاته فى قيادته للحزب الوطنى · كان محمد فريد يقيم فى أوربا منذ عام 1912 ، وكانت معظم اقامته فى سويسرا ، وكثيرا ما زار ألمانيا وأقام فيها لفترات طويلة ، وكان وهو فى برلين يلقى خطبه ويصدر تصريحاته المناوئة للحكومة الانجليزية ·

2 ـ **منصور رفعت** ، كان شعلة من النشاط ، وأسس فى سويسرا ناديا للوطنيين المصريين ، وكان فى بعض مواقفه السياسية أكثر تطرفا من محمد فريد · طرد فى نوفمبر 1914 من سويسرا وأرسل الى ألمانيا · وكتب وهو فى ألمانيا مقالات عديدة ضد الانجليز ، وكان يسانده فى ذلك مكتب خاص للرعاية الالمانية · (ويؤكد بعض الالمان الذين كانوا يعملون مع منصور رفعت أنه كان رجلا صعب المراس ، لم يقتصر شجاره مع زملائه الالمان بل كان فى صراع وشجار دائم مع رفاقه الوطنيين المصريين · واحيانا ما كان يدعى بانه يحمل الجنسية الامريكية ·

3 ـ **محمد فهمى** ، عاش محمد فهمى فى سويسرا لاجئا سياسيا ابتداء من عام 1900 وأسس هناك اللجنة الدائمة للشباب المصرى فى أوربا · وفى يناير 1915

فاوض فى برلين مع ممثلين من الحكومة الالمانية لتحديد موقفهم وموقف تركيا تجاه استقلال مصر ٠ الا ان الرد الالمانى لم يكن كافيا لتحقيق أهدافه وقد ادى ذلك الى فتور علاقته بالساسة الالمان ٠

4 ـ **عبد الملك حمزة** ، كان يختلف فى موقفه كثيرا عن محمد فهمى حيث قرر العمل مع مكاتب الدعاية الالمانية ، ومثله فى ذلك الشيخ عبد العزيز جاويش التالى ذكره بعد هذا ٠٠ اصدر عبد الملك حمزة مجلة «العالم الاسلامى» Die islamische Welt باللغة الالمانية ، وقد هيأ له مركز رئيس تحرير هذه المجلة الفرصة للاتصال بكبار الساسة الالمان ٠

5 ـ **الشيخ عبد العزيز جاويش** : حاز على شهرة أوسع من عبد الملك حمزة ، وعرف جدا فى ألمانيا ٠ كان وهو فى مصر محررا لمجلة اللواء ، غادر مصر عام 1912 ، واتجه الى اسطنبول وهناك التحق بجمعية « الاتحاد والترقى » ، وقيل انه كان وهو فى مصر على علاقة بالوكالة الالمانية ٠ ثم غادر تركيا عام 1916 متجها الى المانيا ، فقدم للصحافة الالمانية على أنه مدير جامعة المدينة المنورة التى أسسها الاتراك عام 1914 ٠ وفى الحقيقة ان الشيخ جاويش لم يسافر الى المدينة المنورة الا لوضع حجر أساس هذه الجامعة مع شكيب أرسلان ، وعلاوة على ذلك قدم أيضا على أنه عميد لكلية صلاح الدين فى القدس ٠ والدافع الحقيقى الذى يكمن وراء رحلته الى المانيا لم يكن كما أعلن هو الاطلاع على نظام الجامعات الالمانية وانما كان للاعداد لاصدار مجلة العالم الاسلامى باللغة الالمانية ولالقاء محاضرات فى ألمانيا ولتقديم النصائح الى الخبراء الالمان فيما يختص بالدعاية التى تهم مصالح العالم الاسلامى ٠

وقد ظهرت مجلة العالم الاسلامى باللغة العربية فى اسطنبول ابتداء من 6 مايو سنة 1916 ، وظهر العدد الاول منها فى برلين باللغة الالمانية فى 19 نوفمبر سنة 1916، وكانت هذه المجلة تضم عددا كبيرا من المقالات للشيخ جاويش ولكبار المسلمين من العرب والاتراك والايرانيين والهنود وغيرهم ، كما كانت تضم أيضا مقالات للعلماء الالمان والصحفيين والسياسيين وهكذا ٠ ولم يكتف الشيخ جاويش بالكتابة فى هذه

المجلة بل كان يكتب ايضا فى جرائد ومجلات ألمانية أخرى · وقد ظهر له على سبيل المثال مقال عن اللغة العربية وتاريخها عام 1916 فى المجلة البروسية Preussishe Jahrbnecher التى كانت تصدر مرة واحدة كل عام وهى مجلة تاريخية ثقافية هامة جدا ·

وبجانب الوطنيين المصريين نجد أيضا فى ألمانيا مكافحين آخرين كانوا يعملون من اجل تحرير المغرب العربى · ويعد الشيخ عبد العزيز جاويش ايضا ضمن هؤلاء المكافحين رغم انه ولد فى الاسكندرية حيث كان لأبوين تونسيين · ومن اشهر الوطنيين المغاربة الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الاولى والذى مازالت شهرتــه باقية حتى الآن هو الشيخ محمد الخضر حسين التونسى الذى رحل الى مصر بعد الحرب العالمية الاولى وعـاش بها ، وقد عــين فى عام 1952 شيخا للازهـــر ·

كان الشيخ الخضر حسين يعيش فى دمشق منذ عام 1912 ثم رحـــل منهـــا الى اسطنبول ، ومن هناك رحل الى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الاولى ليكتب مقالات فى الصحف للتأثير بها على الاسرى المسلمين الذين وقعوا فى قبضة الالمان والذين كانوا قبل ذلك يعملون فى الجيوش الانجليزية والفرنسية والروسية · ولكن الشيخ الخضر حسين لم يحظ لدى الرأى العام الالمان بتلك الشهرة التى كان يتمتع بها الشيـخ صالح الشريف التونسى ·

كان الشيخ صالح الشريف التونسى يعمل أستاذا فى جامعة الزيتونة ، ثم انتقل قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى الى اسطنبول حيث عاش بها ، وقيل انه كان يقوم بتدريس اللغة العربية لانور باشا وزير الحرب ، ثم توجه الى ألمانيا فى نوفمبر أو ديسمبر سنة 1914 ·

أما عن نشاطه فى ألمانيا فيحدثنا عن ذلك الدبلوماسى الالمانى البارون شابنجر Schabinger فى مذكراته التى لم تطبع حتى الآن · كان شابنجر يجيد اللغـــة العربية ، وعمل مترجما فى القنصلية الالمانية فى طنجة لبضع سنوات ، وترجم أثناء الحرب العالمية الاولى الى اللغة الالمانية كتيبا للشيخ صالح الشريف عن الجهـــاد فى الاسلام وظهر هذا الكتاب فى برلين عام 1915 · رافق شابنجر الشيخ صالح الشريف الى الجبهة الغربية حيث وجه الشيخ صالح عن طريق مكبر الصوت نـداء الى الجنـود

والضباط المسلمين وحثهم فيه على الهروب واللجوء الى الالمان • وفى برلين القى الشيخ صالح الشريف مرة محاضرة أمام جمهور منتخب من الالمـــان ، ومرة أخـــرى أمـام الدبلوماسيين الاجانب • ويبدو أن المحادثات التى أجراها الشيخ صالح مع الساسة عن أهداف ألمانيا تجاه المغرب العربى لم تجد القبول الذى كان يبغيه فاحس بشىء من خيبة الامل ، كما لم يحقق اللقاء مع القيصر الالمانى أى نجاح لان السفير التركى كان حاضرا أثناء هذا اللقاء وقد عمد القيصر على التحدث باللغة الالمانية مع السفير التركى ولم يرع الآخرين اهتماما وكان من بينهم الشيخ صالح الشريف والامير على ابن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائرى •

كان الشيخ صالح الشريف قد جاء الى ألمانيا وكله أمل أن تحقق مساعيه بالنجاح• وصرح أمام المستشرق الالمانى Martin Hartmann بضرورة العمل على انشـــاء جامعة اسلامية فى ألمانيا يقوم بالتدريس فيها أساتذة مسلمون ولكن شيئا من ذلك لم يتحقق • ومع ذلك فقد كان سعيدا راضيا بحضوره لافتتاح مسجد أقيم للاسرى المسلمين الذين جمعوا فى مكان أطلق عليه معسكر الهلال Halbmoud Tager وسوف يأتى الحديث عن هذا المعسكر • أما عن شعوره بخيبة الامل فى جهوده التى بذلها مع الالمان تجاه استقلال المغرب فقد ظل كما هو ، لم يتغير ، وفى أوائل عام 1917 أرسل رسالة الى القيصر يطلب منه فيها ان يقوم بتصفية كل مستعمراتـه الالمـــانية حـتى يستطيع أن يقدم الى العالم الدليل على حسن نواياه ، ويبدو أن القيصر لم يرد على هذه الرسالة •

وكما نرى فقد تبين للشيخ صالح وكذلك لزملائه الوطنيين الذين كانوا ينشدون مساندة ألمانيا آنذاك ، تبين لهم أن التعاون مع ألمانيا له حدود لا يمكن تخطيها • وقد اتضحت هذه الحقيقة أيضا للعالم المغربى محمد العتابى فلم يستطع أثناء مناقشاته مع الالمان أن يخفى تخوفه من أن ألمانيا قد تحل محل فرنسا فى احتلال المغرب • ومما يلفت النظر أنه كتب مقالا عن القضية المغربية تجنب فيه أى اشادة أو مدح لالمانيا أو لسياستها ، وقد نشر هذا المقال فى يناير سنة 1918 ، وزيادة على ذلك فقـــد

ناشد العتابى فى هذا المقال الشعوب الاوربية جميعها على العمل على مساندة المغرب فى نضالها من أجل الحرية والاستقلال ·

وهناك من المغاربة من كانوا أقل شهرة ولكنهم على عكس العتابى قدموا قـــدرا أكبر من التعاون مع الالمان ، وأبرز هذه الشخصيات رجل جزائرى الجنسية كان يعمل فى الجيش الفرنسى برتبة ملازم ثان ، ثم فر منه هاربا الى صفوف الجيش الالمانى ووضع نفسه تحت خدمة الدعاية الالمانية · جاء هذا الجزائرى الى ألمانيا يحمل اسم الحاج عبد الله ، وكان قد أصدر وهو فى سويسرا كتيبا باللغة الفرنسية بعنوان : « الاسلام فى الجيش الفرنسى » l'Islam dans l'armée française وقد ظهر هذا الكتيب عام 1917 يحمل اسما للمؤلف هو Boukabouya « رباح بوكبوى » ·

وممن قام بزيارة ألمانيا أيضا الامير على بن المجاهد الكبير عبد القادر الجزائــرى ولكن نشاطه فى ألمانيا لا يعد شيئا يذكر اذا قورن بالمجهود الصحفى الذى قام به الحاج عبد الله أى ان هذه الزيارة لا أهمية لها ولا تخرج عن كونها شيئا رمزيا ·

وكانت ألمانيا تعمد دائما على اطلاع الضيوف العرب أمثال الامير على بن عبد القادر الجزائرى وغيره على معسكر الهلال للاسرى المسلمين الـــذى أنشىء فى ونسدورف Wunsdorf على مقربة من برلين · وقد جلب الى هذا المعسكر الاسرى المسلمون الذين كانوا يعملون فى صفوف الاعداء والذين كانوا قد وزعوا فى بادىء الامر على معسكرات مختلفة فى شتى أنحاء ألمانيا مع غيرهم من الاسرى الانجليز والفرنسيين والروس ، ثم نقلوا الى المعسكر السالف الذكر والذى أطلق عليه معسكر الهــلال · وكان يوجد فى هذا المعسكر مسلمون من العرب والتتار ومسلمو بعض الدول الاخرى·

وكان يقوم بالرقابة فى هذه المعسكرات بعض الضباط الالمان الذين يعرفون اللغة العربية أو لغات شرقية أخرى · ومنهم من كان يتفاهم مع الاسرى العرب بهذه اللغة ·

وكان الهدف من وراء جمع المسلمين فى معسكر واحد بهذا الشكل هو تيسير مهمة نشر الدعاية بينهم لقبول الاهداف الالمانية التركية · وفى سبيل ذلك أنشئت مجلة أطلق عليها « الجهاد » وقد ظهرت هذه المجلة لاول مرة فى برلين فى شهر مارس 1915

وطبع من هذه المجلة 15 ألف نسخة ، وقد صدرت بلغات شرقية مختلفة ومنها اللغة العربية ، ولم يكن المقصود باصدار هذه المجلة توزيعها على الجبهة أو فى الـــدول الاجنبية بل كان توزيعها قاصرا على الاسرى المسلمين فقط ٠

وممن كتب فى هذه المجلة الحاج عبد الله الجزائرى والشيخ محمد الخضر حسين ٠ وكانت ألمانيا تنتهز أيضا فرصة حلول الاعياد الدينية لاقامة احتفالات تلقى فيهـا الخطب للتأثير بها على الجنود ، ومن بين الذين ألقوا كلمات فى هذه الاحتفالات محمد فريد المصرى وضباط وسياسيون أتراك وآخرون ٠ وكانت هذه الخطب تهدف الى التأثير على الاسرى المسلمين للقتال فى جانب تركيا ٠

وقبل اشتراك تركيا فى الحرب (أى قبل نوفمبر سنة 1914) جلب شابنجر بعض الاسرى من معسكر بالقرب من مدينة Paderborn وذهب بهم الى اسطنبول لكى يدعوا الناس هناك الى الجهاد ٠ وهؤلاء الاسرى كانوا عبارة عن خمسة من المغاربـة واثنين من الجزائريين وسبعة من التونسيين ٠ وقد أرسل هؤلاء الاسرى تحت ستار انهم سـيرك متجول وذلك للتغطية على جواسيـس العـــدو ٠

وفى شتاء عامى 1917 و 1918 وضعت تركيا خطة تقضى بأن يجمع أسرى المغرب العربى الذين كانوا فى المعسكرات الالمانية والتركية والذين كانوا على استعـــداد للاشتراك فى الحرب بجانب الاتراك ثم يرسلون فى غواصات الى ليبيا بقيادة المجاهد التونسى على باش حانبة للاشتراك هناك فى الحرب الدائرة ضد الاحتلال الايطالى الا ان هذه الخطة قد باءت بالفشل بسبب التدهور السريع لحالة تركيا العسكرية وبسبب مرض على باش حانبة الذى مات على أثره قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى ٠ وبهـذه المناسبة أود أن أذكر أن هناك غواصات كانت قد أرسلت الى سواحل ليبيا لمساندة الحركة السنوسية وأخرى الى سواحل المملكة المغربية مراكش لمساندة الحركـــة التحريرية بها ، وهذا موضوع يحتاج الى محاضرة مستقلة لعلاجه ٠

أما عن استعداد الاسرى المسلمين للاشتراك فى الحرب بجانب الاتراك فلم يلـــق قبولا ملحوظا ولم يظهر كثير منهم استعدادهم للاشتراك فى القتال بدليل أن بعضهم

وربما هم من الهند قد هرب الى الجيش الانجليزى عندما أتيحت لهم الفرصة وهم فى العراق • ويمكننا القول أن مهمة معسكر الهلال كان دعاية للسياسة الالمانية التركية أكثر منه عملا عسكريا •

فى صيف عام 1917 أقيم فى استوكهولم Stockholm بالسويد المؤتمر الاشتراكى الدولى ، كما أقيم هناك فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من نفس العام مؤتمر الشعوب الاسلامية ، وقد اشترك فى هذين المؤتمرين بعض الوطنيين العرب الذين كانـــوا يقيمون فى ألمانيا • أما ما يتعلق بالمؤتمر الاشتراكى فمن الواضح أن غالبية الوطنيين العرب الذين زاروه لم يكونوا اشتراكيين وهذا ما أعرب عنه محمد فريد المصرى رسميا للصحافة السويسرية بعد رجوعه من استوكهولم باسمه وباسم الحزب الوطنى • ومن المؤكد ان محمد فريد وغيره من أعضاء الوفود العربية قد انتهزوا فرصة عقـد المؤتمر لعرض القضية العربية على أعضاء المؤتمر الاشتراكى العالمى •

أما عن مؤتمر الشعوب الاسلامية فقد ساهمت فيه مصر بنصيب كبير ، وكان يمثل المغرب العربى فى المؤتمر قاضى تونس السابق الشيخ اسماعيل الصفائحى ومعه الشيخ صالح الشريف سالف الذكر ، وكان يمثل ليبيا يوسف شتوان (أو شطوان ؟) النائب السابق لطرابلس الغرب فى مجلس الامة العثمانى ومعه الشيخ محمد بن صالح الشريف البنغازى ، وكان يمثل المغرب الاقصى الشيخ محمد العتابى المشار اليـه سابقـا •

وبعض الوطنيين العرب الذين ورد ذكرهم فى هذه المحاضرة قد عاصروا نهاية الحرب وهم فى ألمانيا ، وفى 19 ديسمبر سنة 1918 اجتمع فى برلين ممثلون عـــن الحزب الوطنى المصرى وأصدروا قرارات كثيرة يؤكدون فيها انهم سوف يواصلون النضال من أجل تحرير بلادهم وجاء فى هذه القرارات الاعراب عن شكرهم للصحافة الالمانية لمساندتهم للقضية المصرية •

أما فيما يتعلق بالتطورات الاخرى التى حدثت فى مصر فمن الواضح أنه قد برزت شخصيات أخرى على رأس الثورة التى اندلعت بعد ذلك بعام ، ولم يكن لمحمد فريد

فى هذه التطورات الاخيرة أى تأثير لانه كان بعيدا عن مصر ووافته منيته وهو فى برلين فى 15 نوفمبر سنة 1919 ·

وبعض هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى ألمانيا أثناء الحرب من رحلوا منها الى تركيا وعاصروا نهاية الحرب هناك وعندما رأوا أساطيل الحلفاء تمر فى مضيق البوسفور هربوا منها الى ألمانيا وفيهم الشيخ جاويش وصالح الشريف التونسى والشيخ محمد الخضر حسين ، وذلك عن طريق روسيا فألمانيا ومنها الى سويسرا ، وانضم اليهم فى الطريق الامير شكيب أرسلان · ورغم اقامة شكيب أرسلان فى سويسرا بعد ذلك فقد ظل على علاقة وطيدة مع ألمانيا ، ويعتبر شكيب أرسلان من أوائل الذين اهتموا بالادب الالمانى وبشعر جوته

وان هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الاولى قد جعلت هؤلاء الوطنيين العرب الذين كانوا يتعاونون مع ألمانيا وينشدون مساعدتها فى حل قضاياهم ، قد جعلتهم أمام التاريخ يوصمون أيضا بالهزيمة ، ولعل فى ذلك بعض الصحة ، ولكن مما لا شك فيه أن الايام قد أثبتت صحة تنبؤات شكيب أرسلان ومحمد فريد وغيرهما وما كانوا يصرحون به من اهداف الحلفاء وخططهم والتى وضحت بعد نهاية الحرب ·

ولقد تعرض هؤلاء الوطنيون للهجوم حتى من أتباع حركة التحرير العربية فى الحجاز الذين كانوا يصفون هؤلاء الوطنيين بأنهم حلفاء للاتراك اللادينيين الذين يحتقرون العرب والاسلام والذين كان لا ينتظر منهم اطلاقا أن يمنحوا مصر حريتها لو أنهم كانوا قد انتصروا فى الحرب ، وربما كانوا على حق فى اتهامهم هذا الا أنهم يغفلون تماما الظروف الصعبة والحالة القاسية التى كان يمر بها هؤلاء الوطنيون أثناء الحرب وهم فى أوربا ·

صحيح أنهم أخطأوا أحيانا فى بعض تصوراتهم وصحيح أنهم ـ كأى سياسيين آخرين ـ قد لجأوا الى الحلول الوسط فى بعض المشاكل · الا أن المصادر الالمانية تؤكد ـ وهذا ما أراه شخصيا ـ أن الوطنيين العرب لم يكونوا عملاء لا للالمان ولا للاتراك · وهناك أدلة تؤكد مثلا على أن محمد فريد كان يعارض صراحة فى محادثاته مع الدبلوماسيين الالمان أى سيطرة لتركيا على حكم مصر فى حال انتصارها فى الحرب·

صحيح أن محمد فريد كان لاسباب سياسية يصرح بموافقته على تبعية مصر لتركيا بعد الحرب ولكنه كان فى محادثاته الخاصة ومعظم محادثاته العامة يؤكد على ضرورة استقلال مصـــــر ٠

وكلمة أخيرة أود ان أوجهها الى سيادتكم قبل أن أختتم محاضرتى هـذه : انى أرجو من كل من يود الكتابة عن هذا الموضوع أن يكون عادلا منصفا فى حكمه وألا يكون متسرعا فى الحكم على هؤلاء الوطنيين لان تاريخهم ما زال طى كثير من المستندات ولم ينشر كله ٠ وقد أردت بهذه المحاضرة أن الفت النظر الى ضرورة البحث والتقصى عن الحقيقة قبل اصدار اى حكم حتى لا يغمطهم التاريخ حقهم ٠ ومن جانبى فانى أقـــوم حاليا بالتعاون مع زميلى الدكتور بيتر هاينه Peter Heine الاستاذ المساعد بجامعة مونستـر Muenster بألمانيا الاتحادية بكتابة بحث مفصل عن هذا الموضوع ٠

والله ولى التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله ٠

توضيح

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا من هذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاسلامى .



تقـــديـم :

الحمد لله أولا وثانيا ، كما يقول الشاعر العربى : أحمده أولا ، اذ يسر لى أن أشارك فى هذا الملتقى الفكرى بقسنطينة ، وان أظفر بتبادل الرأى مع الصفوة من العلماء والمفكرين من أقطار العروبـــة والاسلام ، ومع الشباب الجزائرى الناهض ــ فى الامور الخطـــيرة التى تواجهنا اليوم فى توتر والحاح ــ وأحمـــده ثانيـــا اذ سيكـــون حديثى هذا الصباح ، عن جمال الدين الافغانى ، امتدادا للخطـــاب المهم الذى استمعنا اليه أمس من الاخ الكريم الاستاذ مولود قاسم عن « الانية والاصـــالة » .

والحق ان هذا الموضوع كان وما يزال يشغلنى فى كل ماكتبته عن أعلام الفكر الاسلامى ، من الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد الى الافغـــانى ومحمد عبده والكـــواكبى ورشيد رضا ومحمـــد اقبال ومصطفى عبد الرزاق وعباس محمود العقـــاد .

الاب الروحى لرواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى

ففى كتاب شعبى صغير نشرته بالقاهرة سنة 1961 ، اختـــرت أربعة من سميتهم ، **رواد الوعى الانسانى فى الشرق الاسلامى هم : جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده المصرى ، وعبد الرحمن الكواكبى السورى ، ومحمد اقبال الباكستـــانى .**

فقد رأيت أنهم جميعا قد نادوا « غفـــاة البشـــر » ــ كما يقـــول عمر الخيام فى رباعياته ــ وقادوا حركة التحـــرير والتنـــوير اللازم

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 8/17 جمادى الثانية 1390 هـ ــ 10/19 اوت 1970 م .

لتحقيق الابيه وتثبيت الأصالة ٠ وكان هدفهم ايقاظ الوعى الانسانى فى النفوس،وتنبيه الناس الى الاخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج ورأيت أن المبادىء التى دعا اليها كل واحد من هؤلاء المفكرين هى نفسها المبادىء الضرورية لقيام وعى للانسان بما هو انسان : كرامة الانسان ، ومثلها الافغانى ، وتنوير الاذهان ويمثلها محمد عبـــده ، وصيحة الحرية ويمثلها الكواكبى ، وفلسفة الآنية ، ويمثلها محمـد اقبـــال ٠

ورأيت كذلك أن هؤلاء الاعلام جميعا يشتركون فيمـا بينهم فى سمات واضحة ، جعلتهم ، على اختلافهم فى الزمان والمكان ، ينتمون الى سلالة روحيـة واحـدة :

السمة الاولى انهم مفكرون «جوانيون» على الأصالة : النظر والعمل عندهم متصلان أوثق اتصال ، وهم جميعا متفقون على أن « الدين فى أعلى صورة ، ليس احكاما جامدة ، ولا كهنوتية ولا أذكارا ، وانمـا ييسر بالدين تهيئة الانسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذى يحمله اياه تقدم العلوم والتقنية فى عصرنا ٠ والدين الصحيح يرده الى الايمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب انية فى هذه الدنيا والاحتفاظ بها فى الآخـــرة » ٠

والسمة الثـانية هى انهم جميعا ، بعد نجاح دعوتهـم لايقـاظ الوعى الانسانى ، أصبحوا فى بلادهم من رواد الوعى القومى٠والواقع ان الدعوة الى الوعى الانسانى لا بد أن تسبق الدعوة الى الوعى القومى خلافا لما يتوهم بعض المتوهمين : فانك لا تستطيع أن تحرك فـردا من الافراد الى معنى أو عمل ينفع قومه ، ما لم تحرك فيه انسانيتـه أولا ٠ ولا ريب ان من لوازم الانسانية الايثار والغيرة ، والعمل مـن أجل المجموع ، والتحرر من أسر الانانية ، وكل دعوة لا تعتمـد على دعوة انسانية يكون نصيبها الفناء ٠ فبالوعى الانسانى ترسـخ فـى النفوس القيم الروحية والمثل العليا والمعانى الجميلة ٠ وبه يشعر الانسان ــ كما يقول الكواكبى ــ بأن «**الحرية افضل من الحيـاة واكرم وان الشرف أعز من المنصب والمال**» ٠ والوعى الانســانى هو الـذى «**ينبه الى الظلم كيف يرفع ، ويشير الى الكرامة البشرية وقيمتهـا**» ٠

والسمة الثالثة انهم جميعا وقفوا جهودهم على احيـــاء الشـرق

الاسلامى ، فقد كان ذلك الشرق هو الشغل الشاغل لهم جميعا،وكان لسان حالهم قول الشاعر العربى :

طمـع ألقى عن الغـرب اللثـاما

فاستفـق يا شرق واحـذر ان تنـاما

وقد كانوا من أبناء جمال الدين الروحيين ، وكانوا أبرز أنصاره فى الحركة الفكرية التحريرية التى آذنت بان تؤتى ثمارها دانيـــات فى مختلف الارجـاء ٠

والسمة الرابعة انهم جميعا ادباء مفكرون ، فكان أدبهم كما قيل بحق «**أسرع ذيوعا واهم مدى وأعظم دويا واحكم اصابة للهدف فى ميادين التحرر الفكرى والانقلاب الاجتماعى والتقدم البشرى**» ، لانـه أدب «هادف» أو أدب «ملتزم» كما يعبر الوجوديون اليــوم ٠

ومن هذه الجهة كان لهؤلاء الرواد فى قومهم وزمانهم أثر كبـير يندر أن نجد له نظيرا فى آداب الامم الاخرى وقد يصدق على دعوتهم ما ذكره الكواكبى عن دعوته من انها « **كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غدا بالاوتاد** » ، والواقع التاريخى شاهد على ذلك : فقد قيل فى وصف السيد جمــال الدين الافغــانى انه رجل «**يتناول السوط بيمناه ويوزع الثروة بيسراه !** » ٠ وقيل عن الامام محمد عبده أن دعوته لتحرير الفكر من قيد التقليــد تفوق ما صنعته الجيوش من فتح البلدان أو رد العدوان٠وقيل عن الكواكبى ان كتابه «طبائع الاستبداد» كان من أبــرز الكتب التى عرفها الادب العربى فى العصر الحديث عن الحرية ٠ وقد كان بعيد الاثر فى حياة الفكر والسياسة والقومية العربية جميعا ، أما دعوة محمد اقبال فقد وصفت فى حينها بأنها ضرب من الجنون ٠ ولكن سرعان ما استجابت لها النفوس ، وما لبثت أن اصبحت حقيقة واقعة بانشاء « **باكستان** » دولة اسلامية مستقلة ٠ وهذا يؤكد ان المثالية هى الطريق الصحيح للتجديدية الاسلاميــة ولكل تجـديد انســانى ٠

صــورة الافغـــانى :

بعد هذا التقديم نعود الى الافغانى ، فنقول : هذه صورة مشرقة اللمحات ، زاهية القسمات ، يسطع منها نور ونبثق منها نار ٠ اننا ها هنا أمام عبقرى من عباقرة العصر الحديث ، أصبحت شخصيتــه

فى نظر الشعوب الشرقية «رمزا» للكفاح المتواصل من أجل التحرر السياسى ، وأضحى اسمه علما خفاقا للاسلام المستنير النـازع الى صون كرامة الانسان ، الساعى الى ايقاظ الشعور بحق المواطن ، فى البلاد المغلوبة على أمرها أو الواقعة تحت نير الاستعمار الغربى أواخر القرن المـاضى ·

الاختـلاف حول الافغـانى

وقد اختلفت الاقوال فى شخصية الافغانى،واختلفت فى تبيين مرامى أقواله وأفعاله بل لقد اختلفوا فى اسمه ونسبته الى بلاد أفغانستان فذهب بعض الكتات الايرانيين الى إنه ايرانى،وحاول بعض الاتراك أن يثبتوا أنه من أصل تركى،كما ذهب بعض الهنود الى أنه نشأ فى قرية «شيروت» فى بلاد الهند ، فترجمت الى أسعد آباد لاسباب سياسية·

وظاهرا ان كتاب الشرقيين يتنافسون فى نسبة السيد جمـال **الدين الى بلادهم · والحق انه لم يكن لجمال الدين وطن يستقر به ،** فقد كان بروحه ومنازع فكره شرقيا مسلما ، مواطنا للشرق الاسلامى ان لم يتيسر له أن يكون مواطنا للعالم كله ، على غرار « الحكـيم الـرواقى » القـديم ·

أما آراء الافغانى فكانت ولا تزال موضع جدال واختلاف بـين الغربيين والشرقيين ، على السواء · فمنذ أواخر القرن الماضى رأينـا كتبا عنه بالعربية وباللغات الاجنبية ، بعضها يثنى عليه ويضعـه **فى صف الانبياء ،وبعضها يطعن فيه ويجرده من كل فضيلة ·**

ولنبدأ بمصر ــ وقد كان أثره فيها أعظم من أثره فى أى قطر آخر: نجد كاتبا يخفى اسمه يؤلف عنه كتابا بعنوان : «تحذير الامم من كلب العجم» ! وأعفيكم من سماع شىء من ذلك الهراء السقيم·وفى مصر أيضا نشر عنه كتاب فرنسى بعنوان «جمال الدين الافغانى ودخائل علاقاته مع السلطان عبد الحميد» بقلم جورج كوتشى · ومع الاسف أن هـذا الكتاب الخطير قد نزعت أوراقه ولم يبق منه فى مكتبة الامام محمـد عبده الا غلافه ! وفى السنين الاخيرة شهدنا حمله مسعورة تريد أن تشوه صورة الافغانى ومحمد عبده أمام أعين الشبـاب الاسـلامى · **وظاهرا ان الاستعمار يحرك بعض ضعاف النفوس فى غير واحد من** بلاد الاسلام · وواجبنا أن نكون ايجابيين ، بمعنى أن ندرس ونتابع

الدرس لنجلو جوانب حياة الافغانى ، لا لكى نرد على المتخرصـين ، ولنتركهم وشأنهم كما يقول اديبنا الكبير الاستاذ عمر الاميرى ٠

ايديولوجيـة الافغـانى

جمال الدين الافغانى ، فى تاريخ الفكر الاسلامى المعاصر ، هـو الرائد لحركة النهضة العقلية التى قدر لها أن تزدهر فى أرض الاسلام منذ أواخر القرن الماضى حتى يومنا هذا ٠ ولقد ذاعت أفكار الافغانى بفضل عدد من تلاميذه ومريديه الكثيرين ، مثل محمد عبده ومصطفى عبد الرزاق فى مصر ، ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبى فى سوريا وابن باديس فى الجـزائر ٠

ولا ننسى أن أثر الافغانى قد تجاوز العالم العربى الى ايران وتركيا والهند واندونيسيا ، على الرغم من المعوقات وردود الفعل الداخليـة والخارجية التى اعترضت الحركة الاصلاحية الجمالية زهاء قــرن من الزمـــان ٠

لم يبالغ الشاعر الانجليزى (والفرد سكاون بلنت) حين وصف الافغانى بأنه (رجل ذو عبقرية طاغية) تفجرت تعاليمه القوية خـلال «الظلامية» السائدة آنذاك كبريق يخطف الابصار ٠

والتقى به الفيلسوف «رنان» بباريس فترك هذا اللقاء أثرا كبيرا فى نفسه عبر عنه حين قال : « **ان حرية فكـره ، ونبل أخـــلاقه ، وصراحته ، جعلتنى أشعر أثناء حديثى معه بأنى أمـام واحد مـن معارفى القدماء وقد بعث الحياة مرة ثانية ، كابن سينـا، أو ابـــن رشد أو أى واحـد آخر من اولئك الاحرار الكبار الذين مثلوا تقاليد الروح الانسانى زهاء خمسة قرون** » ٠

زار الأفغانى كثيرا من البلاد الشرقية الاسلامية وتعرض بسبب تعاليمه الثورية الجريئة لاضطهاد السلطات الحاكمة حينا وللابعاد عن البلاد أحيانا أخرى ، وانتهى به المطاف الى اسطانبول حيث مات ولكن تعاليمه الحية بقيت حية تلهم الأجيال من الثائرين ٠

* * *

وكلمتى هنا عن الافغـانى ليست بحثا بالمعـنى الدقيق ، بـل هى اشارات أو ملاحظات قد تصلح لان تكون مادة لاستكمال تاريـخ الأفغانى ، ولتاريخ الحركات الفكرية التى ظهرت فى الشرق الاسلامى

منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وامتدت الى وقتنا هذا • وهى ضرورية بوجه خاص لفهم النهضة التى بدأت تلقى أضواءها على الجامعات الاسلامية العتيقة فى فجر ما سماه «البرت حوراني» باسم «العصر الليبرالى» أو عصر التحرر ، والتنوير •

وعلى الرغم من أن الأفغانى لم يؤذن له أن يدخل الازهر ، فان شهرته كانت قد سبقته الى القاهرة منذ زارها أول مرة سنة 1869 ، وتقاطر طلاب الجامعة الازهرية الى لقائه وكان أول مريديه منهم الامام محمد عبده ، وبفضل الافغانى تحول محمد عبده من التصوف الى المشاركة فى الحياة العاملة ، وتحول من مناصرة الأشاعرة الى مناصرة المعتزلة •

* * *

وأول ما أود أن أسوقه من ملاحظات هو ان التاريخ الحقيقى لأى بلد أو أى أمة هو تاريخها «الجوانى» اذا جاز هذا التعبير وأعنى به ذلك الذى لا يقتصر على رصد الحركات الظاهرة والنظر اليها من الخارج ، وكأنه يرصد حركات الاجرام السماوية أو يتفرج على مشاهدة مسرحية دون أن يتفاعل معها أو يعانيها من الداخل واذا جاز لى أن أستعير تعبير «المتضمنات» الذى يستعمله الأستاذ جاك بيرك فى هذا الصدد ، قلت أن اهتمامى عند الحديث عن الافغانى انما ينصب عن المعانى المتضمنة فى الايديولوجية الافغانية ، وهى أيديولوجية جديدة ، بزغت ونمت فى القاهرة بعد مجىء ذلك العبقرى اليها وتردده عليها زمنا طال أو قصر • ولكن مما لا شك فيه أن مثل هذه الواقعة قد تركت آثارها العميقة عند الكثيرين من شباب المسلمين أزهريين وغير أزهريين •

ـ **والمعنى الاول** من معانى هذه الايديولوجية هو **الدعوة الى قيام «نظام نيابى»** لمصر ولغيرها من البلاد الشرقية ، بدلا من النظم السائدة كالسلطنة أو الامارة أو الخلافة أو الخديوية أو الملوكية •

وقد كان للافغانى أثر كبير فى هذا الاتجاه وبخاصه فى زيارته الثانية للقاهرة سنة 1879 ، ومن المعروف أن (محمد عبده) تلميذ الافغانى الاول هو الذى صاغ مبادىء أول حزب وطنى ظهر فى مصر قبل الحركة العرابية •

ـ **والمعنى الثانى** معنى الاشتراكية ٠ والافغانى أيضا هـو الذى بث هذه الافكار لاول مرة فى مصر ، وفى كتاب المخزومى باشا فصل عن «**الاشتراكية الاسلامية» ومدى اختلافها عن الاشتراكية الغربية** ٠ يقول جمال الدين : **شرع الاسلام الزكـاة درءا لجشـع الانانيـين ودفعا لحقد الفقراء على أرباب الثراء** ، ومن أقواله المأثورة فى مصـر قوله مخاطبا الفلاح المصـرى :

«**أنت ايها الفلاح تشق الارض بفأسك لتقوم بأود العيال ٠ فلماذا لا تشق قلب ظالميـك» !**

ـ **والمعنى الثالث** من معانى الايديولوجية الافغانية ما تجلى فى **حملتـه على الاستعمار** ، والاستعمار عنـده من قبيل أسماء الاضداد وهو أقرب الى «الخراب» والتخريب ، وأدنى الى الاسترقاق والاستعباد منه الى «العمار» و «العمران» و «الاستعمار» ٠

ـ **والمعنى الرابع** : هو بيانه أن الدعوة الاسلامية الاصيلـة **هى دعـوة الى الايمان بحرية الانسان والانكار لفكرة الجبر ، والمكتوب والمقسـوم كما هى مفهـومة لدى بعـض المسلمـين ، وكثير مـن الغربيين الذين ينسبونها خطأ الى الاسلام ، وهو منها برىء** ، والافغانى يفسر «القضاء والقدر» على معنى جديد ، معنى مخالف للجبر ، ومتفق مع ما يسمى بلغة المفكرين المعاصرين باسم الحتمية العلمية ، أو «العلية والسببية» وقد صرح الأفغانى غير مرة بأن الاعتقاد بالقضاء والقدر ، اذا تجرد من شناعة الجبر ، تتبعه صفات الجرأة والاقـدام وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على الصبر واحتمال المكاره ٠

ـ **والمعنى الخـامس** هو معنى «**العقلانية» التى تمـيز بهـا الاسلام عن سائر الاديان** ، ويصرح الافغانى فى كثير من المناسبـات **بأن الاسلام «يكاد يكون منفردا بين الاديان بتقريع المعتقدين بلا دليل»** فان هذا الدين يطالب المتدينين بأن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل ، وكلما حاكم حاكم الى العقل ، تنطـق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل واطفاء نور البصيرة ٠ «وواضح أننا هنا نكاد نسمع صوت أبى العقلانية الحديثة ، الفيلسوف الفرنسى ديكارت ٠

ـ **والمعنى السادس** هو الدعوة الى ما يمكن ان نسميه باسم «**الجامعة الشرقية**» ولا يسعنى هنا الا أن أخالف الكثيرين ممن كتبوا عن الأفغانى ، فحصروا دعوته فى الاتجاه الى «الجامعة الاسلامية» فالافغانى انما كان يريد وحدة شرقية عامة تكفل لدول الشرق سيادتها وتحررها من طغيان الغرب ٠ وكان يريد أن يكون «مواطنا للشرق» كله ان لم ييسر له أن يكون «مواطنا للعالم» ، على غرار «الحكيم الرواقى» القديم ٠ ولا عجب فقد كان ذلك الشرق هو شغله الشاغل ، يهتف باسمه فى حله وترحاله ، وكأن لسان حاله قول شاعرنا العربى المعاصر :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما * فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

ولا حاجة بنا الى الاطالة فى بيان أثر مدرسة الافغانى التى سيطرت على الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والادبية فى مصر المعاصرة : من محمد عبده الى سعد زغلول الى قاسم أمين الى لطفى السيد وعلى عبد الرزاق ، لقد أقد أصبحت تضحية الأفغانى ـ فى نظر الشعوب الشرقية ـ رمزا حيا للكفاح المتواصل من أجل التحرر السياسى ، وأضحى اسمه علما خفاقا للاصلاح المستنير النازع الىصون كرامة الانسان،الساعى الى ايقاظ الشعور بحق المواطن فى البلاد المغلوبة على أمرها أو الواقعة تحت نير الاستعمار الغربى ٠

فدعوته فى صميمها دعوة الى الحياة الكريمة وارتفاع عن حياة الذل والمهانة وكأن لسان حاله ما عبر عنه الشاعر العربى حين قال :

عش عزيزا أو مت وانت كريم * بين طعن القنا وخفق البنود





بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

حضرة صاحب المعالى وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ،
حضرات أصحاب الفضيلة ، حضرات الاساتذة ،
سيداتى ، سادتى :

انها لفرصة كريمة ، تتاح لى فى هذا اليوم ، عند ما أتمكن من المشاركة فى هذا الملتقى الكريم ، الذى جعل موضوعه الاصلى

«البحث عن الفكر الاسلامى ، أو الاشتغال بقضايا الفكر الاسلامى»

وما أحوجنا فى هذه الوقفة ، وقفة التامل التى نقفها اليوم ، لان نعود الى ماضينا ننظر أحواله ، ونسبر أغواره ، لنستعيد منه القوة ونستمد منه المدد ، الذى يمكن له ان يكون هاديا ومرشدا ، وسندا فيما نبنيه من صالحات فى هذا العصر الحاضر ، وان نظرة واحدة على الموضوعات التى أدرجت فى برنامج هذا الملتقى ، ونظرة ثانية على الشعارات التى كتبت فى هذه اللافتات،فى شوارع عاصمة الشرق الجزائرى قسنطينة تجعلنا نهيب بهذه الحقيقة التىلم تفارقنا أصلا،ولم نكن عنها بمعزل ، حقيقة الفكر الاسلامى التى شارك فى الحديث عنها ودرسها وسبر أغوارها عدد من الاساتذة بالامس واليوم ، وسيستمر هذا الملتقى معتنيا ببحثها ودرسها فى مثل هذه الموضوعات ، التى وقعت الاشارة اليها بالعناوين التالية :

الفقه الاسلامى وحرية الفكر
الثقافة الاسلامية

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 10/19 اوت 1970 م ٠

الاسلام والصحة
حرية الفكر فى الاسلام
موقف الاسلام تجاه العقل
الاسلام وشرف الانسان
الاسلام عامل تاريخي فى حياة الجزائر ·
مشكلة الاسلام اليوم
الاتجاهات المعاصرة فى الفكر الاسلامى
آراء حول مستقبل الحضارة العربية الاسلامية ·

وغيرها من الموضوعات التى تشع بالاسلام ، وينبع منها تراث الاسلام وتضيء بأنوار الاسلام ، واذا كانت هذه الموضوعات قد وقع بحثها أو الاشتغال بها بطريقة موضوعية مرة ، وبطريقة حماسية اخرى ، بطريقة فيها التركيز العلمى ، وبطريقة فيها شيء من التحديد للنفس ، لهذه الموضوعات ، ولهذه القضايا التى تهمنا جميعا ، فان ذلك يدل دلالة واضحة على ان الملتقى الرابع للبحث عن الفكر الاسلامى فى هذه الديار ، قد نجح أيما نجاح لانه حول الاتجاهات كلها تحويلا تاما عن الاشتغال بغير الفكر الاسلامى ، وجعلها كلها منصبة ومركزة على هذا العنصر الهام ، الذى يلفت أنظارنا ، ويجعلنا نعيش هذه القضية عيشا دائما مستمرا ، لا يكون بمحض القول كما كان فى الماضى ، ولكن على أساس أن يكون مددا فى حياتنا،وسلوكنا ومستقبل أيامنا ·

وقد اخترت أن يكون حديثى اليكم ، هذا الحديث المتواضع عن « الثقافة الاسلامية بين ماضيها وحاضرها » وهذا الموضوع لعمرى ، لا يمكن التعمق فيه ، لكونه يحتاج الى دراسة طويلة ، والى امعان فى البحث ، هما الكفيلان فقط باعطاء الزكاة ، زكاة العمل ، وبتنوير العقول ، وبتمكين الناس من الاستمداد من هذا البحث ، استمدادا فيه جدوى وفيه نفع · أما عملى فسوف يكون مرتجلا لانى ارتجلت اختياره ، كما وقع بالنسبة لكثير من اخوانى الذين دعوا فى آخر الساعة للحديث عن موضوعات تتصل بالفكر الاسلامى من قريب أو بعيد ، واذا كنت قد اخترت هذا الموضوع فلمساسه بحياتنا القومية ولشدة ارتباطه بواقعنا الحاضر ، وواقعنا الماضى ، وأردت أن اتحدث

واذا كان التثقيف بمعنى : التسوية ، فان ذلك يشير الى المعنى الجديد الاصطلاحي الذى ارتبط بالسلوك أيضا ، وهو الذى تدل عليه الكلمة المأثورة ، عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حيث قالت عن النبى (ص) تصف موقفه من صعبه وأقام أوده بثقافه ، فاذا كان التثقيف أو كانت الثقافة ، هى عبارة عن تعديل السلوك ، وتقويم المعوج وهى بعد عبارة عن التكوين الصحيح الذى يطلب بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة، فلنقل : ان الثقافة هى السياسة التى نستطيع بها أن نزكى النفوس وان نكون العقل، وأن نشحذ الاذهان، وأن نمدها بكل الطاقات التى تستطيع بها بعد ذلك أن تكون قائمة بدورها ناجحة فى عملها ، مخلصة فى تحقيق ما يعهد به اليها ، والثقافة هذه ، بهذا الاعتبار لا تكون علما فقط ، وليست أبدا ثقافة ، ولكنها بحكم ما حققت من تقويم المعوج ، وبحكم ما هذبت من سلوك ، وبحكم ما عدلت من عمل ، هى عبارة عن التقاليد الموروثة الاسلامية ، وعن المناهج الرشيدة التى قام بها الصالحون من قبل ، وهى عنوان أيضا عن الاوضاع الحضارية التى لابست الامة الاسلامية فى ماضيها ، وهذه الاوضاع الحضارية وتلك المناهج والتقاليد ، هى التى نلمسها فى العلوم الاسلامية كلها ، وفى آداب الاسلام ، وفى الفنون الاسلامية نلمسها فى العلوم ، لكون هذه العلوم مقوما حضاريا ، ولكونها أداة تقويم للاذهان واصلاحا للعقول ، ونلمسها فى الآداب ، لان الادب تعبير عن السلوك ، ولان الادب تعبير جميل عن الاهواء والميول ، وعن الاعمال ، وعن الاغراض والمعانى ، وعن كل ما يلابس الفرد ، ويلابس الجماعة من أحوال اجتماعية وغيرها ، وهو عنوان عن الاوضاع الحضارية أيضا ، لان الحضارة الاسلامية فى كل لون من الوانها ، وفى كل صبغة من أصباغها ليست الا الثقافة ، تترجم عن ماضى ، وتحاول بعد الترجمة لذلك الماضى والتعريف به ، أن تمد الحاضر ، أو من يعيش فى هذا الحاضر بشىء يستطيع به تعديل سلوكه ليكون على سنن السابقين ٦

وبذلك فانى أعتبر الثقافة شيئا أصيلا ، يجرى وراءه الناس فى هذا العصر الحديث وقد كان القدامى يعنون كثيرا بالعلم ، وبفنون العلم، ويدفعون الناس الى الاستفادة من منابعه ، ولكنهم لا يتلفتون الى الثقافة ولا يعطونها شيئا من الاهمية ، حتى طلع عليهم العصر

من الثقافة لان الثقافة في الواقع ترجمان ومرآة ، ينعكس عليها الفكر الاسلامي الذي أريد أن أتحدث عنه · أو الذي هو بالاحرى موضوع هذا الملتقى ، فان الثقافة التي أهدف الى الاشتغال بها ، وأميـل الى الحديث عنها وهي ثقافـة اسـلامية تجعلني مضـطرا لان ألتفت الى الماضي البعيد ، وأتابع الحلقات ، حلقة بعد حلقة ، حتى أصل في هذه التطورات الثقافية الاسلامية الى العصر الحاضر ، ومنها ننطلق في رسم المخطط الذي ينبغي أن نأخذ به لمستقبل ثقافتنا الاسلامية التي لا نبغي بها بديلا ، ولا نريد أبدا عنها تحولا ولا تحـويلا ، هذه الثقافة التي أساسها الدين ، وركنها القرآن ، وعمادها العمل الصالح والسلوك الحسن الذي كان من رجالنا في الماضي ، من الاسوة الحسنة التي نقتدي بها في عصرنا الحاضر ونعمل على تحمل الرسالة منها ، مبلغين لها لمن يأتي بعدنا من الاجيـــال ·

واذا كانت الثقافة الاسلامية هي الموضوع الذي أردنا أن نتحدث عنه ، فان ذلك يحتاج بالطبع الى أن نقف وقفة واحدة ازاء كلمــــة ثقافة ، ثم ازاء هذا الوصف الملابس لها ، الكاشف عنها ، المميـز لحقيقتها بين الثقافات وهو « الاسلامية » ، ثم نقف وقفة أخرى عند المراحل المتعددة المتوالية التي مرت بها الثقافة الاسلامية ، قويـ غير ضعيفة ، منتجة غير ضحلة ، ومادة معينة وسندا قويما ، لا شيئا خائرا ، لا أصالة له ولا قوة فيه،ولا رائحة نستطيع ان نعتبرها تغذي يمد النفوس به كثيرا ، هذه الثقافة التي نريد أن نقف ازاءها للتأمل وللبحث ، هي في الواقع التراث الاسلامي الذي ورثناه عن السابقين، وهي قبل ذلك قبل أن تكون تراثا ، هي ــ أي كلمة ثقافة ــ مشتقة من الكلمة العربية المعروفة : ثقف ، يثقف بمعنى : سوى بمعــنى سوى الاعوجاج ، جعل المعوج قويما ، واذا كانت ثقـف ، بمعــنى سوى ، وهي أيضا بمعنى حذق ، وبمعنى غبط ، وبمعنى قوم ، كما جاء في لسان العــرب لابن منظـور ، وكانت بعـد ذلك ــ أي هــذه الثقافة ــ هي التي استمد منها لفظ : الثقاف وهو الحديدة التي تكون مع القواس والرماء ، يقوم بها المعوج من الشيء ، فهي التي أشــــار اليها الشاعر بقـوله :

اذا عض الثقاف بها اشمأزت * تشز قفا المثقف والجبين

الحاضر ، فاذا فى كثير من البلاد وزارات ، تسمى وزارات الشؤون الثقافية ، واذا بالاهتمام يتجه أولا وبالذات الى الثقافة ، ويعتبرون الثقافة ، أو مهمة وزارة الثقافة هو بعث التراث الحضارى الفكرى بالنسبة للامة ، فاذا كانت الثقافة عبارة عن بعث او احياء هذا التراث المجيد بالنسبة للامم ، فان ربط الماضى بالحاضر يكون أساسا لتحقيق المستقبل ، وهى النظرية التى أشار اليها ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون ، واعتبر أن بين الثقافة والعلم فوارق كثيرة ، لان العلم فى حد ذاته معرفة وليس هو بمقوم للاذهان ولا بمحسن للسلوك لان العلم فى ذاته هو حصول المعرفة والاكتفاء بذلك ، وكم من عالم لا سلوك له ، وكم من خبير بأشياء كثيرة تدل على الاختصاص لا ثقافة له ، فالثقافة اذن غير العلم ، لان الثقافة تتولد عن العلم ولا يلزم أن توجد معه ، ثم ان العلم قد يكون سببا للثقافة ، فهى مسبب عنه ، ومتولدة عن ذاته ، والعلم يشحذ الاذهان ويملؤها بما يحتاج اليه الانسان من أفكار وآراء ، ولكن الثقافة تقوم بصقل الاذهان ، ومن هنا نلمس النظرية القديمة التى هى فى الواقع النظرية الموروثة عن المسلمين ، والتى يباهى بها المربون حتى الآن ، ويجترونها اجترارا من التجارب التى كتبها مونتانى MONTAIGNE فى كتابه المعروف LES ESSAIS **والذى يقول فيه ليس الغرض من التعليم أن نحشو الادمغة بكثير من المسائل ، ولكن الغرض من ذلك أن نهذبها وأن نحسن تكييفها** ، فشحذ الاذهان والتكييف هو حقيقة الثقافة ، والعلم هو الاحاطة بتلك القضايا المختلفة التى تمس الفكر ، وتمس كثيرا من اختصاصات البحث عن الانسان ، والثقافة الاسلامية هى كل ذلك ، وهى غير ذلك ، هى كل ذلك لانها تتصل بالعلم ، وترتبط به ، وتتولد عنه ، وهى التقاليد والمناهج والاوضاع الحضارية ولكن الثقافة الاسلامية هى كل ذلك منسوبا للامة الاسلامية ، ولهذه الملة الجامعة التى يلتقى فيها العرب ، والطورانيون ، والايرانيون ، والهنود من المسلمين ، واذا كانت الجامعة الاسلامية ، حين تلتقى فى بوتقة ما نسميه الثقافة الاسلامية ، قد قدمت فى الماضى ، ومازالت تقدم حتى اليوم أشياء كثيرة تصلح أن تكون عنوانا على الحضارة الفكرية الانسانية فى ربوع العالم الاسلامى ، واذا كانت هذه الثقافة ، حين تنسب الى هذا العالم الاسلامى لها مميزاتها ، فان فضيلة الاستاذ

المرحوم الشيخ **محمد الفاضل بن عاشور** قد أطلق تعريفا لهذه الثقافة ، كلمة جديدة هى التى اعتبر بها **الثقافة ترجمانا عن الاحوال الذهنية للعالم الاسلامى** فاذا كانت الاحوال الذهنية للعالم الاسلامى هى حقيقة الثقافة الاسلامية،فان الكلمة الفصل تكون بذلك قد قيلت.

ومن هنا يبدأ البحث وننطلق فى سبر المراحل التى مرت بها هذه الثقافة الاسلامية وقبل أن أمضى معكم فى دراسة هذه المراحل المتوالية للثقافة الاسلامية ، يحسن بنا أن نعود الى الاشارة ، الى ما بين العلم وبين الثقافة من صلات ، لان الامة العربية التى تولدت عنها هذه الحضارة العربية الاسلامية ، والتى انبعث فيها صوت الحق مدويا ، فأنار المشارق والمغارب ، والتى شع فيها نور الاسلام بمولد رسول الرحمة (ص) ، كانت هذه البلاد فيما اعطت وفيما أولت من نعم مصدرا لهذه الخيرات ، وما مصدرها فى الحقيقة الا الكتاب والسنة ، وعمل الصحابة ، وعمل النبى (ص) ، وما أجمع عليه المسلمون ، وبهذا تكونت تقاليد اسلامية ، وتكون سلوك اسلامى ، ووجدت معانى وقواعد ، وقوانين اجتماعية واقتصادية ، وسلوكية ومنهجية اسلامية ، وكان كل ذلك راجعا بنا بعد ذلك الى مصادر التشريع الاسلامى ، فاذا الثقافة الاسلامية بعد ذلك علم يشمل كل هذه الاختصاصات ، ويشمل كل هذه الجوانب ، وبينه وبين لازمه الذى تولد عنه ، بينه وبين المسبب الذى انفصل منه ، بينه وبين الاثر الذى كان العلم مصدرا لتحقيقه ، والمعلول شىء من الترابط الطبيعى الذى لا يمكن أن نشعر فى حالة من الحالات بالافتراق بينه وبين ذلك الوليد ، أو ذلك المتفرع ، أو ذلك الاثر ، لان الاثر والفرع والمتولد ، انما يرتبط بالاصل ارتباطا جوهريا لا سبيل الى انكاره ، ولا طريق الى اغفاله ، وهذا الترابط العظيم بين العلم وبين الثقافة الاسلامية يحدو بنا فى الاول الى النظر فى هذه الاصول الثقافية ، التى كانت مصدر العلم ، ومصدر الاشعاع بالمعرفة ، ومصدر الفقه ، ومصدر التكوين الثقافى فى الامة الاسلامية • انتم تعلمون أن الامة العربية فى فجر الاسلام ، لم تكن شيئا مذكورا ، وان الذى رفع من مقامها وانار السبل أمامها ، ووجهها التوجيه الصالح ، وأخذ بيدها حتى ارتفعت فى عنان السماء ، واستطاعت بعد ذلك أن تفرض نفسها فرضا ، وان تعدى بجهودها الثمار الكثيرة اليانعة ، واستطاع الناس

بعد ذلك أن يغترفوا من مناهلها ، وان يرتوروا من مواردها وان يستفيدوا من معارفها ، انما كان ذلك بسبب الاسلام ؛ والمعرفة الاسلامية ، والثقافة الاسلامية ، لا تكون لمن يجهل القرآن ، ولا تتحقق لمن يتنكر للسنة ، ولا تثبت لمن يجهل أحوال الصحابة وأعمالهم وتراثهم وما كان لهم من نشاط ومن اجتهاد ولا يمكن أن تلمس عند الذين لا يدركون حقيقة القياس ، وحقيقة الاجتهاد ومعنى الاجماع ، فان التفاعل الحضارى كان الاصل فيه التلقى عن رسول الله (ص) ، وكان الامر الثانى فيه هو النظر فيما يدعو اليه الشارع ، وكان الامر الثالث هو الالتفات الى الاحوال الراهنة فى المجتمع الاسلامى الاول ، وما جاء من التشاريع لتطبيق تلك النصوص وقلاب الوجه الحكمى ، بالنسبة لما لا يجدنا عليه نص ، ثم الاجتهاد والعمل من أجل الارتفاع على أشياء يعتبرونها حلا أو حراما ، مما وقع عليه اجماع الأمة ، كل ذلك سببه تفاعل حضارى ، وسببه عمل ذهنى ، وسببه اجتهاد جماعى قام بة المسلمون فى الرعيل الاول الذى سبقنا زمانا واحسانا رضى الله عنهم .

واذا كانت الثقافة الاسلامية ، قد تمكنت فى الأول ، فى هذه العناصر التى هيى عناصر الثقافة الاسلامية ، كما أنها مصادر التشريع ، فانا لا نقف عند هذا الحد ، بل نتجاوزه الى أشياء جديدة أخرى ، لأن القرآن كقرآن ، كمادة تتلى ، ويتعبد بتلاوتها ويستمد الحكم التشريعى منها ، قد كان موضع دراسة ، وسبيل استنارة وطريق التوعية فى كثير من مجالات الحياة ، لم يكن مقصورا على الناحية التشريعية فقط ، بل أفاد العلماء والأدباء ، وأفاد البلغاء والخطباء ، وكان مددا للناس جميعا ، وكذلك السنة فيما هذبت من سلوك فهى ليست تشريعا فقط ، فان من حديث رسول الله (ص) **«الكلمة الجامعة ، أو خواتم الكلام»** ، ثم ان من عمل الصحابة وأقوالهم ومما أثر عنهم ،ما يعتبر دستورا فى الحياة الاجتماعية ، كل ذلك كان موضع نظر ودرس ، وسبيل بحث وتمحيص ، ومن ثمة تكونت الامة الاسلامية فى المرحلة الاولى ، بل فى الجيل الثانى من الاجيال المتعاقبة فى الاسلام ، جماعة أرادت أن تنظر فى مصادر التشريع ، وان تتأمل القرآن ، وان تستمد منه ، وان تستفيد فحواه ، وان تستخلص كثيرا من معانيه ، مما لم يسبق اليه ، وجاء التفسير وجاء

علم الحديث ، وجاءت علوم الشريعة من فقه وأصول الدين ، الى غير ذلك ، وجاء علم الكلام ، وجاءت الفلسفات ، وكان الى جانب هـــذه العلوم التى نعتبرها العلوم الاصلية ، العلوم الاسلامية الاصلية،كان الى جانبها مجموعة أخرى من العلوم ، هي التي لم تعرف بيننا بعلوم المقاصد ، ولكنها اعتبرت علوم الوسائل ، وعلوم الوسائل هي التي أخذت على أهلها الاشتغال باللغة مادة ، والاشتغال باللغة اعرابـــا وقواعد فى النحو والصرف ، واخذت عليهم ايضا الاشتغال باسرار التعبير وأفانين القول فى علوم أسرار العربية ، من بلاغة ومعـــان وبيان وبديع ، وكانت كل هذه العلوم تحتاج الى جهود متـواصلة ، وقد عرفنا هذه الجهود المتواصلة فى القرون الاولى الى نهاية القرن الرابع ، فكان الازدهار الحضارى الفكرى ، وكنا نحن ندرس هذه العلوم فى جامع الزيتونة عمره الله ، عندما نأخذ فى دراسة مادة من هذه المواد ، التى تسمى « الوسائل » يقال لنا كما هو منصوص عليه فى مقدمات هذه الكتب،انما يطلب هذا العلم للكشف عن معانى القرآن ، أو يطلب هذا العلم لحماية الانسان عن الخطأ فى تـــلاوة القرآن ، أو يطلب هذا لعلم للتعمق فى دراسة أسرار التشـــــريع الاسلامى ، ومن أجل ذلك فان هناك ارتباطا كبيرا بين العلوم اللسانية والذوقية ، والبلاغية وغيرها ، والآداب شعرا ونثرا ، وخطبة وكتابة، وبين العلوم الاخرى التى نعتبرها أساسية فى الثقافة الاسلامية وهي علوم التفسير والحديث وما يتصل بهما ، واذا كانت هذه العلوم هى التى نسميها العلوم الاسلامية الخاصة ، وان شئتم لنسميها الثقافة الاسلامية الخاصة ، فان لنا ثقافة اسلامية مشتركة ، وهذه الثقافة الاسلامية المشتركة ، انما اشتملت وتناولت طوائف ومجموعـات أخرى من العلوم،ليست وليدة عصر النهضة او الانبعاث LA RENAISSANCE كما يدعون ، ولكنها علوم قديمة عرفها العرب ودرسهـا المسلمـــون قبل أن تستفيق أوروبا من غفلتهـا .

فان المراكز الحضارية التى كانت أول الامر كما قال الدكتـور أحمد أمين رحمه الله ، فى أم القرى ، ثم فى المدينة والتى تحولـت الى دمشق ، ومن ثمة الى بغداد ، هذه المراكز الحضارية أو المراكز الفكرية للاسلام قد عرفت من المعتنقين للدين الجديد ، والآخـذين أنفسهم بهدايته شيئا من العلم ومن الدرس ومن البحث ، الـــذى

أرادوا به تحقيق التفاعل الحضارى ، وايجاد السند الجديد للحياة الجديدة المعاصرة فى الاسلام ، وبذلك فان الامة الاسلامية ، عنـد ما انتقلت سيادتها الى البلاد المحكومة والآهلة بالاقباط ، وبالروم ، وبالفرس ، والذين تحـولوا جميعا الى امـة اسلامية مهتدية بهـدى الدين ، ومتمسكة بالعروة الوثقى التى هى القرآن ، والتى أخـذت نفسها بالآداب العربية ، وتفاصحت فى غير الاعجمية ، استطـاع هؤلاء ان ينقلوا الى اللغة العربية كثيرا من الفنون،ومن الكتب القديمة اليونانية ، واستطاعوا بتجاربهم الخـاصة ، وبأعمـالهم وبقـواهم الفكرية أن يستنبطوا علوما ، وان يكتشفوا اسرارا ، وان يتحولوا من الدراسات الذاتية ، او الدراسات الاسلامية الى الدراسات القائمة على التجارب الانسانية ، وهكذا اتجه المسلمون فى العصر الاول الى دراسة الحكمة ، والطب ، والصيدلة ، والبيطـرة ، كما اتجهـوا الى دراسة العلوم الرياضية ، من حساب ، وجبر ، وهندسة ، والعلـوم الطبيعية ، من طبيعة ، وكيمياء ، وفلك ، والى الجغرافية بما قاموا به من رحلات ، ووضعوا من خرائط ، واتخذوا لهم المراصد ، لرصـد الاجرام ، ومخابر لتحليل المعادن ، وتحليل المقطرات ، واكتشفـوا كثيرا من الفنون ، ووضعوا الصناعات ، ووضعوا بعد ذلك مؤلفـات جديرة بأن يبقى ذكرها مستمرا ، وان نعود اليها متيممين بما كـان لاسلافنا من جهد فى تحقيق الحضارة الانسانية ، وهى دوائر المعارف التى وضعوها فى شتى العلـوم والفنـون ٠

واذا كانت الثقافة الاسلامية قد شاركت هذه المشاركة الجبارة فى تحقيق الازدهار الحضارى، وتكوين المستقبل السعيد،والمباهات بحقيقة البحث العقلى الانسانى ، الذى يعتمد قبل كل شىء هـداية الدين وروح الاسلام ، فكيف بنا اليوم نقول ان هذه العلوم أجنبيـة عنا ، وهى ليست اسلامية ، واذا ما تحولنا اليها ، أو التفتنا لهـا اعتبرناها شيئا أجنبيا عن تكويننا ومفارقا لحقيقتنا ، فليست تلـك العلوم اذا فى الواقع ، الا هاتيك العلوم المشتركة وتلك الثقـافة الاسلامية المشتركة ، وما معنى الاشتراك ، الا لكونها كانت حقا لنا وحقا لغيرنا ، بل انها تجاوزتنا الى غيرنا ، ولم تتجاوز غيرنا الينـا ، تجاوزتنا الى غيرنا ، وذلك لما كان فى العربى المسلم من سمح ، وما

كان فى العربى المسلم من اطمئنان للعلم ، وما كان فى العربى المسلم من قوة على تدبير الشؤون ومن معرفة واخلاص فى التبليغ ، وهـذا البلاغ الذى كان من العلماء المسلمين فى شتى نواحى الثقافة ، وكل مجالات العلم ، تشهد به أوروبا ، وتشهد به كتب التاريخ ، الـتى وضعت حول حضارة العرب وحضارة المسلمين ، ثم نجد البـرهان الصادق على ذلك فيما قام به الدارسون من المستشرقين أنفسهم ، وذلك فى الكتب التى وضعوها حول الحضارة المشرقية ، أو الحضارة المغربية الاندلسيـة التى كان العلماء من أبناء أوروبا يهـرعون الى مدارسها للاخذ عن الاعـلام المنتصبـين فى تلك المدارس ، وبهذا الشكل نستطيع أن نثبت للثقافة الاسلامية شمولا ، هذا الشمـول لم يكن خاصا ، ولا جامعا ، ولا مقصورا فى جمعه وشموله ، على البلاد الاسلامية أو العالم الاسلامى ، بل كان شاملا للانسانية كلها ، ومهيئا للاستفادة من كل الناس جميعا ، لان العلم أمانة ، لا بد من تبليغهـا الى كل انسان ، واذا كانت هذه الرابطة فى الثقافة الاسلاميـة ، هى رابطة ذهنية ، فان معنى الاخـوة الاسـلامية الذى جاء به القـرآن ، والذى سوى به بين أفراد المسلمين ، والذى جعل به الناس متحابين فى الله، يوجب لهم مددا من تلك الثقافة الاسلامية ، يسانده ويعززه ، ويقويه ، ويجعله بعد ذلك ركازا لكل نهضة جديدة ، ولكل تطـور فى سبيل الخـير ، وفى سبيل الصـلاح .

ولكننا بعد أن فصلنا القول فى الفرق بين هذه الثقافة الاسلامية المشتركة ، والثقافة الاسـلامية الخاصة ، يحسن بنا أن نعـود الى تحليل الثقافة الاسلامية من ناحية أخرى ، لنرى رأى البـاحثين فى ذلك ، ونقر هذا المعنى ، قاعدة لتجديد الثقافة الاسلامية ، كـانت الثقافة الاسـلامية يوم ذاك عند المسلمـين هى الوصول الى ادراك ما دعا الله الى ادراكه من هذا الوجود ، واذا كان العلم الاسـلامى والثقافة الاسلامية يرميان الى ادراك ما دعا الله الى ادراكه من هـذا الوجود ، هذا الوجود بنوعيه وبفرعيه ، الفرع المادى الدنيـوى ، والفرع الروحانى الدينى ، بحيث لا تكون الثقافة الاسلامية مفصولة عن هذه الارض التى وقفنا عليها ونعيش فيها ، كما انها لا تفصـل العالم الآخر الذى فيه الحياة الحقيقية الباقية ، وفيه السعادة الدائمة

اذا كانت الثقافة الاسلامية ترتكز على الواقع ، وعلى العالم الـــذى نعيشه ، وعلى الارض التى تثبت عليها أقدامنا ، باعتبار كونها الحياة الدنيا فتلتفت بذلك الى دراسة أحوال المجتمع الانسانى ، وتحليـــل التجارب الانسانية ، والاخذ بكل ما هو فى صالح الفرد ، وفى صالح الجماعة ، وتتحول بعد ذلك الى دراسة أحـوال الآخـرة ، وأحـوال الانسان فيما بينه وبين خالقه ، وفيما بينه وبين نفسه ، لا فيما بينه وبين اخوانه فى هذه الارض ، وما يقتضيه الاجتماع الانسانى مـن طبيعة العمران ، والعلوم،والثقافات التى تكون فى صالحه وفى خدمة الاسرة والجماعة ، فان النظـرة التى ينبغى أن يتجـه بها البـاحث الاسلامى فى الثقافة الاسلامية ، ينبغى أن تكون مركزة حين ننظر الى الدين ، على جوهر وعلى خطوات هى مطية لتلك النظرة ، وهى السبيل لتلك المعرفة ، لان الدين ينبغى أن ينظر اليه من عدسة الدنيـــا ، ولان الدنيا أيضا ينظر اليها من عدسة الدين ، فيستطيع بذلك أن يعدل المسلم سلوكه فى هذه الدنيا ، بمراقبة حق الله وبمراقبة أوامره ونواهيه وبالامتثال لما دعا اليه ، وبالانتهاء عما نهى عنـه ؛ وبذلك يستطيع أن يكون صالحا فى مجتمعه ، وان يكون قادرا عن القيام بأعباء هذه الامانة التى ثقلت عليه فى هذه الارض ، فـــاذ استطاع ان ينظر الى اعماله الانسانية كلها والى الجهود والطـاقـات التى يبذلها من أجل الجماعة ، نظرة خاضعة بحكم الشارع ، وبحكم الدين الاسلامى ، فانه يكون قد حكم الدين فى الدنيا ، ويكون قـــا أخذ من الدنيا بنصيب حسبما يسمح له به دينه ، ويكون فى تعلق بهذه الدنيا متعلقا بها تعلق من ينظر الى آخرته ، لا تعلق من ينسى آخرته ، ولا يلتفت اليها ويزدحم مع كثير من الناس من الضـــالين المضلين ، فى تيارات الالحاد والشرك ، والنظر الى الدين من العدسة الاخرى وهى عدسة الدنيا ، يقتضى منا التفاتة جـديـدة ، ذلك لان الدين فى كثير من الشعوب ، والامم المتخاذلة ، والشعوب والامـم المتدهورة أخلاقيا ، والشعوب والامم التى نسيت كل معنى مــن معانى الاصالة ، والتى لا تستطيع أن تجد لها جـامعا يجمعها ، ولا مقوما يجانس بين أفرادها قد اعتبر الدين عندها أفيونا OPIUM واعتبر الدين عندها شيئا آثما ، واعتبر الدين عندها أمرا لا ضرورة له ولا حاجة اليه ، بل هو من المخـدرات التى تفسـد الجمـاعة ولا

تصلحها،اما اذا نظرنا نحن الى الدين من عدسة الدنيا ، فانا نستطيع أن نبلغ الى تحقيق المفهوم الصحيح من الدين ، فان بعض المعاصرين الذين سبقوني ، قد أشاروا الى ان العبادة وحدها ليست كافية ليكون الانسان مسلما ، بل ان الاخلاص في العمل والذود عن الحوض والدفاع عن الحمى ، والاستماتة في سبيل صلاح الغير ، والقيام بشؤون العلم ، وتشييد المباني الضخمة ، وتحقيق الثروة للامة ، هو من الجهاد في سبيل الله ، فاذا كان الدين الذي هو المطمح والغاية ، بل الملابس لحياتنا ، والاكسير الذي يدفع الحياة الحقة في شرايينا وأنفاسنا ، والذي يمدنا بكل الطاقات التي نحتاج اليها في الصراع الدائم في هذا الوجود ، اذا كان الدين هو هذا ، فان النظرة الى الحياة الدنيا ينبغي أن تكون سببا في التمسك شيئا فشيئا وأكثر فأكثر ، بحقيقتنا الدينية الاسلامية ، التي لا نبغي عنها معدلا، وخصوصا في هذا الشمال الافريقي ، وفي تونس،والجزائر،والمغرب، فمتى كان الدين مطية للدنيا ، وكانت الدنيا وسيلة لادراك حقيقة الدين على الوجه الاكمل ، لنأخذ بسبلنا الواضحة في هذه الطريق لتحقيق الثقافة الاسلامية على الوجه الاكمل ، ينبغي أن نقف هنا وقفة لنتأمل ما كان عليه الاسلاف ، في هذه الحياة الثقافية التي استطاعوا بها أن يملأوا الدنيا نورا ، وان يعمروها بمعاني الاكبار والمجد والخلود ، فان العالم الاوروبي الذي كان ذاهلا في غيبوبة ، والذي كان يخاف فيه المرء كل شيء من حوله ، لاستيلاء الجهالة على الانفس ، ولطغيان المظالم على العباد ، ولتحكم أصحاب الاهواء في الجماعات الكثيرة من الناس ، لم يخرج من القرون الوسطى ، التي هي قرون الظلام ، وقرون الجهالة وقرون التأخر ، الا عندما استمد من العالم الاسلامي كل أنوار المعرفة ، وكل سبل التقدم وبذلك فان المرحلة التي نسميها ، مرحلة القرون الوسطى ، ينبغي الا تفهم على الوجه الذي يتبادر الى الأذهان ، وخصوصا عند المحدثين ، أو صغار المثقفين الذين لم تملأ وطابهم بالمعارف الانسانية والاسلامية الصحيحة ان عصر الظلمات الذي هو القرون الوسطى ، وهذه الكلمة لقننا اياها الفرنسيون وغيرهم ، من رجالات أوروبا ، وحكاها لنا تاريخ أوروبا لا تماشي في شيء ولا تثبت في جزئية قلت أو كثرت ، شيئا من هذه السمات ، بالنسبة للعالم الاسلامي ، بل ان العالم الاسلامي كان

فى ذلك الطور فى حياة الازدهار الكامل ، والرقيى المثالى والتقدم العلمى العجيب ، وانما وقع التحول بعد ذلك ، فلما تقدمت أوروبا كتب للعالم الاسلامى أن يتأخر ، وذلك لأسباب يطول شرحها ، وليس من موضوعنا الأخذ بها فى هذه العجابة ، ويتحول العالم الاسلامى عن الحياة التى كان فيها ، وتتطور الاوضاع فى البلاد الأوروبية ، لكونها أخذت بالعلوم الاسلامية والانسانية القديمة بما ترجمت الى اللغات الفرنسية والايطالية ، والرومية البزنطية من كتب لليونان ، وكتب للعبرانيين ، وللسريانيين ، وللعرب ، استطاعت هذه الأمم أن تأخذ بحكمة اليونان ، التى فاتهم الشىء الكثير منها ، لو لم ينقذهم التراث الاسلامى ، وأخذوا بشىء كثير من الحضارة الاسلامية ، واستطاعوا بعد أن استرجعوا تلك الأمجاد وأخذوا بتلك المعارف أن ينتسبوا وأن يجتمعوا مؤتمرين على العالم الاسلامى وفى هذا الائتمار بالعالم الاسلامى ، محاولة لمقاومته ، محاولة لجزائه ، كما جوزيى سنمار من قبل ، فاذا كان العالم الاسلامى قد أعطاهم النور والمعرفة والخلاص مما كانوا عليه من الأوضاع فان جزاءه يكون بالانتقام منه والتحطيم له ، والتفريق لجماعته ، والتقسيم لبلاده ، والتجزئة لثروته والاستبداد لكل ما يملك ، من متاع وعتاد وقوة ، ورجال ، هذا الوضع الذى انتهى بعد ذلك الى سيطرة العقل ، بل سيطرة العلوم النظرية ، والعلوم الطبيعية ، على مفهوم الدين والحضارة الدينية ، لكون البلاد الاوروبية لا دين لها ، وانى فى ذلك أشاطر أستاذنا على عبد الواحد وافى فيما أشار اليه بالامس من كون النصارى ، ليسوا بأمة موحدة ، وانما هم من المشركين أيضا ، وقد بين ذلك ، فاليهودية والنصرانية وان حلت وحل ركابها بأوروبا ، لكن هذا العالم الاوروبى المتفسخ ، هذا العالم الاوروبى اليهودى أو النصرانى لم تكن حقيقة الدين عنده بالتى تستطيع أن تعايش العلوم الانسانية ، او العلوم الطبيعية والرياضية، حين انتقلت اليه ، ووجدوا عداوة كبيرة بين الطقوس،والعلوم الدينية عندهم ، وبين العلوم الحضارية الانسانية ، التى نبعت من حقيقة الاسلام ، الذى حث الناس وحضهم على طلب العلم فى أى مكان ولو فى الهند ٠

واذا كان الدين عند الاوروبيين لا يمكنه بحال أن يجتمع مع العلم،

ولا أن يتماشى معه ، ولا أن يتجانس فى شىء مع حقيقته ، لكون الدين النصرانى واليهودى قد حـالا عن أصلهمـا أو تحـولا عن أصلهما ، فأصبحا بعد ذلك مبنيين على أوهام ، وقائمين على خرافات ،ومفروضين فى تحقيق أغراضهما على تخيلات وهمية، لا يصدقها العقل ولا يماشيها المنطق ، من أجل ذلك كانت هذه العقائد لا تستطيع أن تماشى العلوم المنطقية ، ولا العلوم الرياضية ، ولا الطبيعية ، أما الدين الاسلامى فقد ماشاها طويلا ، وهو يماشيها الآن،وسيماشيها فى ركب الحضارة الجديدة ، ونظرنا الى هذا العالم الاوروبى فوجدناه يوما بعد يوم يفقد رشده ، وتضيع الحقيقة منه ، ويسلب معانى الايمان ، ولا تقـوم فى ذهنه ، ولا تسيطر عليه ، بعيدا عن كل مناهج الرشد ، فجـاءت جميع ألوان التفسخ الاخلاقى ، والانحلال العقلى والاجتماعى ، ووجد ما نشاهد ، وما نرى ، وما نلمس من هذه الاوضاع ، التى تسربـت الى بلادنا الاسلامية ، ووقفنا منها موقف الحائرين ، الذين يريدون الذود عن حماهم ، حتى لا تمتزج بهم هذه الاخـلاط وهذه الامراض التى استوردها كثير من أبنائنا الذين ذهبوا الى أوروبا ، فعـادوا بها معهم معتبرين فى ذلك كل التقدم وفى حقيقتها كل معانى المدنية والازدهار ، ومن أجل هذا الوضع نكون مضطـرين الى مـلاحظة ان العالم الاسلامى فى هذه القفزة التى كانت من العالم الاوروبى ، وبعد ذلك التآمر الذى كان من النصارى واليهود عليه ، وجد نفسه ممزقا، ووجد بلاده مسلوبة ، ووجد أمواله مأخوذة ، وثرواته نافذة ، وجد كل سلطان لديه عاطلا ، فهو لا يستطيع بعد ذلك حراكا ، واستولى الخوف على النفوس ، كما استولى الفقر على النفوس ، وكان الفقـر يفرض على بعض الناس أن يعاملوا الاجنبى ، وكان الخوف يفرض على آخرين ألا يقاوموا الاجنبى ، وظل الناس بين خوف وبين عدم قدرة ـ أى عجز على المقاومة ـ لولا أن ظهرت فيهم يقظة اسلامية ، يقظـة ثقافية ، كل الفضل يرجع اليها ، وكل الخير مرتبط بها ، وذلك لان العالم الاسلامى فى الفترة التى تفصل بين عهد الانبعاث فى أوروبا ، وسقوط الدول الاسلامية ، او الامبراطورية الاسلامية تحت كلكلـة الاستعمار الاوروبى ، الى عصر الانطلاق واسترجاع الحريات ، كان العالم الاسلامى ـ ولا يستطيع واحد أنينكر ذلك ـ غير قادر على المضى فى الدراسات والبحوث ، وغير قادر على الاستمرار فى الكسب وفى

الاعطاء ، وغير قادر على الانتاج كما أنتج السابقون ، ولكنه شكى وبكى ، وترك أشعارا كثيرة وادبا غضبا ، ينطق بهذه الاحوال ، وهو الى ذلك قد حاول الحفاظ على كيانه ، ولو لم تقع المحافظة على هذا الكيان لما استطاع أن يستعيد سيادته ، وأن يسترجع مجده السليب ، والمحافظة على الكيان لا شيء حققها فى تاريخ العالم الاسلامى ، لا شيء حققها فى تاريخ الامة الاسلامية ، غير الدعوة الى الحفاظ أولا على الدين ، وثانيا على اللغة • وليس عجيبا أن يقال ذلك ، **فان الدكتور عبد الرحمن بدوى فى دراسة سابقة له نشرها قديما فى مجلة الرسالة ، تحدث عن المؤسسات الثقافية الاسلامية الباقية ، التى حفظت على الناس دينهم ولغتهم ، فعد فى ذلك جامع الزيتونة الاعظم ، والقرويين والازهر الشريف ،** فهذه المدارس الثلاثة حفظت على المسلمين كيانهم ، واستطاعت أن نبقى على اللغة وعلى الدين ، بما نفثت من طاقات فى الاجيال المتوالية على حلقات الدروس وبما لقنت من مبادىء المعرفة الاسلامية والمعرفة العربية ، وما عن بعد ذلك كله ، الى أن وقف الجيل الجديد متنكرا لهذه المدارس ، بل متنكرا لهذا التعليم الذى حفظ عليه دينه ولغته ، ولا سبب فى هذا الا التطلع اذا كانوا مخلصين لتحقيق الامجاد الحقيقية المعاصرة التى لا يمكن ان تثبت ولا أن توجد الا باغتراف من المناهل الثقافية الموجودة فى أوروبا ، ونحن لا نقول شيئا هنا ولا نمانع فى هذا السبيل ، بل ندعو الناس ، بل يدعو الاسلام الى تلقى المعرفة من أوروبا ، بل لتلقى المعرفة من الشيطان الرجيم اذا لزم ، فالمعرفة ظالة المؤمن أين وجد ، والمعرفة سبيل التقدم كيف كان ، ولكن على شرط واحد ان ينظر اليهما النظرة الدينية ، وان تخضع للتفكير الاسلامى ، وان يقع الاستمداد منها ، استمدادا حقيقيا يتماشى وحقيقة الاسلام •

وهنا يلاحظ أن المسؤولين عن الثقافة فى ديار الاسلام تواجههم مشكلة كبرى ، هى مشكلة الحفاظ على التراث الانسانى الاسلامى ، والثقافة الاسلامية الخاصة ، أم تجاوز هذه الثقافة الاسلامية الخاصة، الى الثقافة الاوروبية التى بها نتمكن من تكوين الاطارات التى نحتاجها فى أمتنا الجديدة الشابة الفتية ، نحن لا نمانع فى تكوين الاطارات،

التى تتخرج فى أوروبا ، فى كل مجالات التكوين العامى ، وفى كل مجالات التكوين الصناعى،ولكن الذى نمانع فيه هو ذوبان الشخصية وهنا ينبغى أن نقف متأملين للوضع الذى عليه البلاد المتقدمة ، والوضع الذى عليه البلاد المتخلفة التى نحن منها لسوء حظنا ، أو بلاد العالم الثالث ، الذى يقاسى مرارات وأزمات كثيرة فى هذا المجتمع الحاضر ، فاذا أردنا التخلص من وضعنا الحاضر ، ينبغى أن نأخذ بتكوين الاطارات ، لكن ما شأننا وهذه الاطارات اذا عادت الينا كافرة ، وما شأننا وهذه الاطارات اذا عادت الينا متفسخة ، وما شأننا وهذه الاطارات اذا عادت الينا وقيادها قياد جموح لا نستطيع أن نمسكه ولا نستطيع أن نوجهه أبدا فى فى سبيل الخير والاسعاد ، ان هؤلاء الذين يعودون الينا يعودون الينا لسوء الحظ بأوبئة وأمراض ، أول هذه الاوبئة وهذه الامراض الشك فى حقيقتهم والانكار لذاتيتهم ، فهم يتمسكون بكل ما هو أوروبى وينتهون ويبرؤون ويتبرؤون من كل ما هو عربى اسلامى ، ولا ينطبق عليهم هنا ، غير قول الشاعر الكريم الخالد حافظ ابراهيم رحمه الله حين قال :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا

ما بت أشكو النوايا

أمة قد فك فى ساعدها

بغضها الاهل وحبها الغربا

وإذا كانت الاطارات التى تأتينا من الخارج تريد أن تفرض علينا غزوا استعماريا جديدا ، غزوا فكريا ، وأن تجعلنا تابعين لغيرنا ملحقين بهذا الغير ، لا وجود لنا ، ولا كيان لحقيقتنا فانهم لا يفعلون أكثر مما فعله الفرنسيون فى هذه الديار ، وأى شىء فعله الفرنسيون أكثر من محاولاتهم اطفاء هذا النور الذى هو من نور الله ، اطفاء هذا النور الذى هو من نور القرآن ، وما هو الا نور الاسلام ونور البيان العربى ، والذى يؤكد لنا ذلك ، أن المستر **زويمر** عندما كان يوجه الحملة الفرنسية على شمال افريقيا فى الايام الموالية لاحتلال الجزائر قال بالحرف الواحد : **ليس الغرض من تعليم الفرنسية فى شمال أفريقيا وخاصة فى الجزائر أن نكون عقولا كعقول مونتيسكيو أو**

فولتير ، أو روسو ، ولكن الغاية من ذلك ان نعوض لغة بلغـــة ، وعادات بعادات ، واذا كان مثقفونا وأبناؤنا الذين يعودون الى بلادنا من القارة الاوروبية أو غيرها من العالم الغــربى المتقدم المتفتــح ، يحاولون هذا ايضا فى ديارنا،فيطمسون على تقاليدنا وآدابنا وأذواقنا ومعارفنا ويريدون تعويض لغتنا العربية بلغاتهم الاجنبية التى تلقوها هنالك،وتعويض العادات الاسلامية بالعادات الاوروبية التى اعتادوها هنالك ، فانا لا نرضى بذلك مهما كان ثمنه ، ولو كان يؤدى بنـــا الى العزة الدائمة ، ولا عزة الا بالقرآن ، ولا عزة الا بالله ، ولا عـــزة الا بالاســـلام ٠

واذا كان الابتعاد الحاصل عن سنن الرشاد يدعو الى أن يقــف اليوم المسلمون موقف المحاسبة لأنفسهم على المسالك الـرشيدة التى ينبغى أن يتبعوها فى سن الثقافة الاسلامية فان مرد ذلــك الى عدة أسباب ، شكى منها ونبه اليها شاعرنا المختار عمر بهاء الدين الاميرى فى قصيــدته الــرائعة التى قالها فى ذكــرى المعــراج والتى جاء فيهـــا :

والدين فى قشر الحياة عواطف * وهواتف ومظاهر وكلام
والجيل فى تيه التنابذ شارد * يعتام منه المذهب الهدام
أصل اصيل فى الحضارة والهدى * لمعات برق فى الظلام تشام
أما السلوك فنشأة غــربيــة * وتمــرد وتبــدد وقتــام
الكون تطحنه رحى مدنية * هوجاء جــل عظائمها أوهـــام

فهذه الاعتبارات التى تعود بنا الى اكتشــاف حقيقة الــدين فى مجتمعنا الحاضر ، وتصور الملابسات الاجتماعية والفكرية التى عليها الاجيال الصاعدة والعدول الى ذكر هذا الامس الاصيل فى الحضارة التى نريد أن نهتدى بها ، ولكننا فقدنا لمعانها ، وهذا السلوك الذى أصبح خاضعا للتيارات الفكرية الغربية الاجنبية ، والذى جعلنا فى تردد وتمرد وهذا الكون الذى تطحنه رحى المدنية الهوجاء التى جل عظائمها الاوهام ، لكونها لا ترتبط بسند روحى عقلى ، من أجل هذه الاعتبارات هزت العالم الاسلامى ، والحمد لله ، من الهند آخـــر بـــلاد الاســــلام فى المشرق ، الى الدار البيضاء أو الرباط آخر بلاد الاسلام فى المغرب ، هزة عنيفة ، ودعته هذه الاسباب ليستيقظ ،

فجاءت من اجل ذلك اصوات متجاوبة ، ودعوات متلاقية يؤيد بعضها بعضا من أجل وضع الخطة الجديدة فى مستقبل الثقافة الاسلامية وهذا هو الذى يطمئن استاذنا عثمان أمين على تخوفاته التى أشار اليها صباح اليوم من كون الناس قد استمروا على الحديث والمنادات بالعمل وهم لا يعملون ، فنحن بحول الله نعمل ونتواصى بالحق ، ونتواصى بالصبر ، ونتواصى بالصدق والاخلاص ، ومن أجل ذلك فان هذه الاصوات المتلاقية المدوية قد جعلت الناس فى كل بلاد الاسلام يلتفتون اليوم الى مشكلة التعليم الاسلامى والثقافة الاسلامية فهذا الاخ الوزير مولود قاسم يركز محاضرته الغالية النفيسة على الاصالة،والرجوع الى المنابع الاصلية وهو فى ذلك ليس الا مستجيبا لدعوة عبد الحميد بن باديس ، ولدعوة المصلحين والائمة السابقين، الذين ظهروا فى المشرق والمغرب ، وهذا الدكتور أحمد طالب وزير الاعلام والثقافة يدعو الى الانغماس فى المجتمع الجديد ، حتى نتعرف على حاجته ، ونتأكد طلباته ، ونتبين الوجهة التى يريد أن يتجهها لنمده بما يحتاج اليه من ثقافة دينية اسلامية أصيلة ، وهذا شيخ المسلمين وزعيمهم الاعلى المودودى ينادى فى مجلس الجامعات الاسلامية الذى انعقد فى سبتمبر الماضى بفاس المعمورة بالاحتراز من الاحوال الثقافية الجديدة،والتوجيه الى الثقافة الاسلامية الاصيلة ، وهذا الشيخ المرحوم محمد الفاضل بن عاشور ينادى بالذهنية الاسلامية ، ويدعو الى الاخذ بأسباب الثقافة المعاصرة التى تتماشى والحياة الجديدة على أساس اخضاع هذه الثقافة المعاصرة الى النظرة الدينية .

وهكذا نجد الامة الاسلامية جمعاء فى مشارق الارض ومغاربها تلتفت هذه الآونة الى تحقيق السبيل للنجاة بالمجتمع الاسلامى من الهوة الذى هو سائر اليها ، وذلك بالاخذ بيده عند ما نمده بالثقافة الاسلامية المشتركة ، والثقافة الاسلامية الخاصة ، الثقافة المشتركة التى تجمع بيننا وبين الغربيين ، والتى نجعلها على أساس من الدين وقواما من العمل الصالح والنظرة الى حق الله فينا،والاسلامية الخاصة التى تعود بنا الى دراسة العلوم الاسلامية التى لسوء الحظ هى آخذة فى التلاشى والتناقص والانخراط ، بحيث لا تجد واحدا من الناس يستطيع أن يفتيك بسهولة ، أو أن يحقق لك مطلبا شرعيا ، أوأن

ينبت لك معنى ، من المعانى الذوقية الاسلامية بالاستمداد من النص القرآنى أو الحديثى ، فيكون من الضرورى أن يتوفر قوم على هـذه العلوم لنكون عند قول الله تعالى : «**فلولا نفر من كـل فرقـة منهـم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينـذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهـم يحذرون**» ، هذه هى الاطارات الجديدة التى ننتظرها ، والتى ينبغى أن نعمل على تحقيقها وايجادها ، والتى ينبغى أن نسهر على تكوينها ، وما ذلك الا لنتلافى الانقاص الذى أصبح يشكو منها العالم الغربى ، ولئلا تزل بنا الاقدام كما زلت بالعالم الغربى ، وهكذا نكون قد كونا لانفسنا ثقافة معاصرة أصلية وأصيلة ، وثقافة اسلامية روحية متينة ونكون قد حققنا بهذا وبذلك التوازن الضرورى بين الحياة المـادية والحياة الروحية،فاذا فعلنا ذلك كنا جديرين بأن نتمثل بقول القائل:

نبنى كما كانت أوائلنا ، ونفعل مثل ما فعلوا .

والسلام عليكم ورحمة اللـه .



منشورات

وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

سيصدر قريبا كتاب :

الملتقى الثامن

للفكر الاسلامى

بالفرنسية فى ثلاثة اجزاء

ويشمل :

سائر المحاضرات ،

والتعقيبات ،

والمناقشات .

قضيــــة المـــرأة كمــا أراهـــا (*)

د. الحبـر يوسف نـور الدائـم
استاذ بكلية الآداب
جامعة الخرطوم ـ السودان

بســم اللــه الرحمــن الرحيــم



ينقسم هذا البحث الى ثلاث شعب : الاولى عن المرأة فى الجاهليات القديمة ، والثانية عن المرأة فى الجاهليات الحديثة ، والثالثة والاخيرة عن المرأة فى الاســـلام وهى كما تراها شعب متطاولة شامخة كل واحـــدة منها قد تكون كتابا قائما برأسه أو كتبا متعددات ان أريد لها التفريع والتدقيق والتجزئة ولكننا لا مفر لنا فى عجالة كهذه من المر السريع ، والايجاز غـــير المخل عندما نتعرض لضم الاشتات ، وتوحيد الفروع . وجمع الاجزاء .

(*) محاضرة القاها فى الملتقى الحادى عشر للفكر الاسلامى بورقلة (وارجلان) .

تقلبت قضية المرأة فى أطوار متعددات ، ومرت بأدوار مختلفات وكلما بعد الناس عن المنهج الربانى ، وصدفوا عن النور الذى أنزل اليهم ازدادت هذه القضية تعقيدا وبعدا اذ لابد من الخضوع لواحد من سلطانين سلطان الله وسلطان الاهواء والشهوات والنزوات • وقضية المرأة تكشف عن هذا الامر كشفا بينا ما له من مزيد • ولو نظرنا نظرة عجلى الى وضع المرأة فى الجاهليات القديمة ـ فى مصر وفارس وفى روما واليونان لوجدناه يتفق فى صفة واحدة هى صفة الظلم ،ويتخذ له طابعا واحدا هو طابـــع العدوان • ففى مصر تفقد الشابات الحسناوات المجدودات حياتهن قربانا للنيل ولعل فى هذا الامر ضربا من ضروب التجلة والاكرام ! : (1)

واضطرت الملكة حتسبشوت (2) أن تلبس ملابس الرجال احتراما للرأى العام ، ومراعاة للعرف والتقليد الذى لا يكاد يعترف للنساء بقيمة ، وضربت الجاهلية عنـد قدماء المصريين بجران فأباحوا الزواج بالاخت والام فى بعض العهود ، وأبطلـــوا تصرف الزوجات فيما يملكن ما لم يأذن لهن أزواجهن •

وعاش الفارسيون فى عهودهم المظلمة فى فوضى جنسية عارمة ضاربة فأباحت الزرادشتية الزواج بالامهات والبنات والاخوات واتخاذ الخليلات ، وعاشوا فى نفاق قاتل جعلهم يرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويحرمون فى الوقت ذاته على بعض المتزوجات رؤية آبائهن واخوانهن ، وجعلوا بينهم وبينهن حجابا •وللمرأة فى فارس معيشة ضنك ، وعذاب واصب فهى سلعة تباع وتشترى لا يرعى لها ال، ، ولا ترقب فيها ذمة ، يحكم عليها بالاعدام لاتفه الاسباب وأوهاها ، ويرى فى وجودها بأس ووبال • وروما التى تفاخر بأنها أم القوانين ، وربة التشريع لم تعبأ بالمرأة ، ولم تلتفت اليها ، ولم تعترف لها بحق ، وما زادت على أن أثقلت كاهلها ، ونقضت ظهرها بواجبات ثقال فطالبتها بالطاعة العمياء ، والخضوع الكامل ، والتسليم المطلق لسلطة

---

1) البيت من قصيدة قافية مشهورة لشوقى فى صفة النيل يقول فيها

أمـن السمـــاء نزلت أم فجـرت ... من عليا الجنان جداولا تترقق

2) المرأة فى الشعر الجاهلى : 49 .

الرجل الذى لا ترد له كلمة ، ولا يخالف له أمر ، ولا يبطل له حكم فهى ملكه الخالص يتصرف فيه أنى شاء ان شاء قتل وان شاء أبقى • وله أن يسىء معاملتها وينكر لهـا ويتنمر فان أظهرت شيئا من تذمر ، أو أبدت نوعا من تمرد ، أو كشف صفحة من اشمئزاز أو طالبت بطلاق وفرقة عوقبت على ذلك عقابا ، وذاقت وبال أمرها ، فالمتاع المملوك لا يحق له أن يرفع أنفا ، أو يحتج على معاملة ، أو يشمئز عن ظلم واقع به •

وأثينا التى تفاخر بأنها أم الفلسفة ، وربة الفكر ، ودار الفلاسفة ومثوى المفكرين لم ينبس فلاسفتها ومنكروها بكلمة واحدة تناصر المرأة ذات الجناح المهيض ، والظهر المكسور ، واذا شاء حظ المرأة العاثر وطالعها السىء أن تلد غلاما قبيحا حكم عليها بالاعدام كأنها قد اقترفت اثما أو كسبت خطيئة ، أو اجترحت ذنبا • أما ان كانت امرأة ولودا ودودا فانها تؤخذ من زوجها كرها ، وتحـول الى مصنع للتفريـخ فما يجوز لها أن تكون وقفا على رجل واحد • ولا تعجب لهذا التصرف اذ ان افلاطون ـ ومكانه عند القوم وعند بعض متعالمينا معروف ـ كان يرى ان النساء ينبغى أن يتداولن كما تتداول الحاجات • أما أستاذه سقراط فقد كان أكثر تحرجا منه اذ زعم ان الامر حقه أن يقصر على الاصدقاء فالصديق الوفى ان يبر اصدقاءه باعارتهم زوجة ! ولم يكن للاناث عند اليونان حق فى ارث أو ملك ، والامر موقوف على الذكور فهـم الذين يرثون ويملكون ، وهم الذين يعددون الزوجات كيف شاءوا ويطلقون متى أرادوا من غير ما قيد أو شرط •

والعرب ـ قبل أن يكرمهم الله بالاسلام ـ كانوا ينظرون الى الاناث نظرة ازدراء واحتقار ، ومقت وكراهية والقرآن الكريم يصور لنا ذلك أبلغ تصوير وأوفاه فيقول : **(واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سـوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون)** • « النحـل 58 ـ 59 » وفى أخرى يقول سبحانه : **(واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهـه مسودا وهو كظيـم)** •

وبلغ الاستخفاف بانسانية المرأة عند بعض قبائل تميم وقيس وأسد وهـــذيل مبلغا عظيما فكانت الجريمة النكراء ، وكان الوأد (3) وكان دفن البنات وهن حيات **(واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت)** « التكوير : 9 » **(ولاتقتلوا أولادكم خشيـــة املاق)** · الاسراء : « 3 » **(لقد خسر الذين قتلوا أولادهـــم سفهـا بغـــير علم)** · « الانعـام : 13 » ·

واستنكر الاسلام هذه الجريمة البشعة الشوهاء ولم يقل فيها عفا الله عما سلف ولم يقل فيها الاسلام يجب ما قبله كما فى سائر الجرائم الاخرى بل طالب بعتق رقبة عن كل بنت موءودة · (4) وظهرت هذه النظرة الجاهلية للبنت عند العرب مرة أخرى

وذلك حين طال بهم العهد ، وقست قلوبهم وأنتهم الشبهـات مـن كل جانب ، وابتعدوا عن مصدر النور والعلم والمعرفة **(ومن لم يجعـل الله له نورا فما له من نـــور)** · « النور : 40 » · فقام أبو العلاء المعرى المعروف بعداوته للمرأة ليقول :

ودفن والحـوادث فاجعـــات   لاحـداهن احـدى المكرمات

وها هو ذا يقف ليسلبها حقها فى التعليم بعد أن سلبها حقها فى الحياة :

علموهن الغزل والنسج والردن   وخلـــوا كتـــابـة وقـــراءة

وصـــلاة الفتاة بالحمد والاخلاص   تجـــزى عـن يـونس وبـراءة

كان العرب فى الجاهلية لا يجعلون للمرأة شأنا فهى سلعة تباع وتشترى فاذا أراد العربى الجاهلى أن يتكلم عن الزواج فانما يتكلم بلغة الدراهم والدنانير :

يقـولون تـزويـج وأشهـد انه   هو البيع الا ان من شاء يكذب

---

3) لعل من أجود ما كتب عن الوأد ما نجده فى كتاب المرأة فى الشعر الجاهلى 232 وما بعدها .

4) قال قيس بن عاصم للرسول (ص) أخاف سوء الاحدوثة والفضيحة فى البنات فما ولدت لى بنت قط الا وأدتها) فبكى الرسول (ص) وقال من لا يرحم لا يرحم وأمره أن يعتق رقبة عن كل بنت وأدها .

واذا فرح بقدوم الفتاة فانه انما يفرح بها لانها تزيد فى ماله غداة يأكل مهرهــــا أكلا لما لا يبقى ولا يذر ومن هنا جاء قولهم (هنيئا لك النافجة) أى التى تزيد فى مالــــك (5) ٠

ولم يكن لتعدد الزوجات غاية ينتهى اليها ، ولقد تفشى فى بنى ثقيف لانهم كانوا ذوى سعة ويسر وثراء ٠ روى الترمذى عن عبد الله بن عمر ان غيلان الثقفى أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية فأسلمن معه فأمره النبى (ص) أن يتخير منهن أربعة ٠ واتخذ العرب من التعدد وسيلة من وسائل تأديب النساء فكانوا يتهددوهن ويتوعدوهن كما قال الآخـــر :

شربت دما ان لـم أرعك بمنـرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

ولم يكن للطلاق حد يتنهى اليه أيضا فله أن يطلق كما يشاء ويعوذ متى أراد ٠ وكانوا يظاهرون من نسائهم ويؤلون منهن السنة والسنتين فلا يقربوهن أبدا ٠ وكانوا يعضلون النساء فيمنعوهن التزوج ويمسكوهن ضرارا ليعتدوا ، وكان للولد الاكبر أن يطرح ثوبه على امرأة أبيه فتكون له ملكا خالصا ان شاء تزوجها من غير مهـــر ، وان شاء زوجها غيره بمهر ٠

ولم يكن الجاهليون يورثون النساء ولا الصغار ويقولون لا يرث الا من طاعـــن بالرمح ، وزاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة ٠ قال طرفة ابن العبد محتجا على أعمامه الذين أكلوا مال أمـــه :

ما تنظـرون بمـال وردة فيكمـو   صغر البنون ورهط وردة غيب

أما الاماء فى الجاهلية فقد كان وضعهن انكى وأزرى وأحقر من وضع الحرائـر فمن الجاهليين من كان يكره فتياته على البغاء ان اردن تحصنا ليبتغى عرض الحياة الـــدنيا ٠

---

5) قال النابغة فى (أمن آل مية رائح أو مغتدى) :
والبطن ذو عكـن لطيـف طيـه   والصدر تنفجه بثـدى مقعـد

واذا تجاوزنا وضع المرأة فى الجاهليات القديمة الى وضعها فى الجاهليات الحديثة وجدناها مهضومة الحق ، مظلومة الجانب ، مهيضة الجناح • يقول Blackstone معقبا على قوانين انجلترا سنة 1765م (ان القيود التى ترزح تحتها المرأة يراد بها فى الغالب حمايتها وخيرها لان القانون الانجليزى يؤثرها بعطف شديد) ولنا أن نسأل ماذا فى تلك القوانين التى آثرت المرأة بذلك العطف المزعوم ؟ وأى عطف هذا الـذى يمنع المرأة حق التملك فمن المعلوم ان المرأة الانجليزية لم تخول هـذا الحـق الا منذ 1882م • وأى عطف هذا الذى يبيح للزوج أن يبيع زوجته بشرط واحد ـ وهو شرط أملاه التكريم للمرأة ، والتفانى فى احترامها ، والمبالغة فى تقديرها ! هذا الشرط هو أن يتم البيع بموافقة الزوجة المكرمة المحترمة المقدرة ولم يرفع هذا الامر الا فى سنة 1805م • وفى سنة 1931م باع أحد الانجليز زوجته فحكمت عليه المحكمة عشرة أشهر ولو حدثت هذه المقايضة الآثمة قبل سنة 1805م لافلت صاحبها من العقـاب فالامر مباح مشروع ، ولم يأت الرجل ما يوجب عقابا ، أو يستلزم مؤاخذة • رغم هذا كله يأتى المشرع الانجليزى ليزعم ان القانون يؤثر المرأة بعطف شديد (6) •

أما فى فرنسا فلم تكن المرأة أحسن حالا من أختها فى انجلترا فالظلم سمة كل مجتمع جاهلى لا يزن أموره بميزان السماء ••• المرأة الفرنسية المتزوجة لا يحق لها أن تتصرف فيما تملك الا باذن زوجها ما لم تشترط فى عقد الزواج انها حرة حرية كاملة فى تصرفاتها المالية بعد الزواج ذلك لان سطوة الرجل وعنفوانه صفة ملازمة للمرأة فهى لابد أن تكون تحت نيره أبا كان أو زوجا • ونص الفرنسيون على ثلاثة أسباب من شأنها أن تؤدى الى الحجر ونفى الاهلية للعقود والمعاملات المالية وهذه الاسباب هى :

(1) صغر السن (2) زوال العقل (3) الانوثة ! ••• واستمر الحال على هذا المنوال أعواما متطاولات حتى عدل سنة 1938م وكان تعديلا يسيرا لم يأت بما يرضى طموح المرأة اذ لم يرفع عنها كل قيد وحجر فرضى الزوج لا يزال شرطا لصحة تصرف المرأة فيما تملـــك •

---

6) فى المرأة بين الفقه والقانون : 211 ـ 212 يورد د. السباعى بعض الامثلة .

ولا يظنن ظان ان وضع المرأة الغربية اليوم وضع مريح أمثل كما تريد ان توهمنا الدعايات الغربية المكثفة ، وكما يروج له عندنا دعاة التقليد الارعن ، والمحاكاة الحمقاء . فالمرأة عندهم تشقى وتكدح ، وتبيت كآلة من عمل يدها لتأكل وتنفق على نفسهـا ولا معين لها من أب أو أو أخ أو ولد أو قريب اللهم الا أن يفعل هذا من باب التكرم والتفضل والاحسان أما الالزام القانونى الصلت فلا . وكثيرا ما تتحدث الامهات عندهم مفتخرات مسروروت ان أولادهن المغتربين أرسلوا اليهن قائلين (Merry Chrismas) أو (Happy New Year) فاذا سل الشاب نفسه من زحمة الحياة الصاخبة ، وتذكر أبا شيخا كبيرا ، أو اما قد بلغت من الكبر عتيا استحق الثناء كله ، والشكر جميعه ودل على انه ذو نزعة انسانية ، وعاطفة حانية في مجتمع مادى غليظ لا يعرف للنوازع الانسانية مكانا ، ولا للعواطف الحانيات موضعا . وحسبنا أن نعلم ان القوانين لا تلزم الابناء عندهم الصرف على الامهات وان بلغت احداهن أرذل العمر ، ومسها الضر وولدها الوحيد يتقلب فى عيش ناعم ، ورزق واسع وحال ميسور . وقد يتفضل الولد ان كان بارا بوالديه ، عارفا لحقهما بارسالهما الى ملجأ من الملاجىء التى تقيمها الدولة لترعى امثالهما ممن ضعف عن الكسب ، وأقعده الكبر ، وأخذت منه السنين في مجتمع يجعل من الانتاج المادى هدفا وغاية ولا يلتفت الى قيمة روحية . ولقد أدرك العقلاء منهم ان فقدان القيم الروحية (The Spiritual Values) يفقد المجتمع توازنه وترابطه ويؤدى به الى التفكك والاختلال .

أما وجدانية الزواج عند الغربيين ، وحملتهم على المسلمين أنهم يذهبون مذهب التعدد فهو لا يعدو ان يكون تمثيلية مضحكة مبكية فهجر الزوجات الشرعيـات . والاتصال بنساء أخريات من الاساليب الشائعة عند القوم وهى أساليب تدل عـلى أنانية الرجل الذى يريد أن يستمتع بوقت طيب ولكنه فى الوقت ذاته يريد أن يتملص من كل تبعة وأن يتخلص من كل مسؤولية فهو استمتاع لا يكلفه الا قليلا اذا ما قارنه بتبعيات البيت ومسؤوليات الزواج الذى يرى فيه قيدا ثقيلا .

وبالرغم من التفنن فى استعمال الوسائل الحديثة التى تخفى كثيرا من آثـار الجرائم الخلقية الا أن الاطفال المتبنين وغير الشرعيين The adopted and illigitimate children

وحالات الاجهاض (Abortion) أصبحت من المشاكل الاجتماعية المستعصية التى يجأر العقلاء منها اذ انها تنذر بشر مستطير ، وعاقبـة وخيمة ، والمرأة والرجل شريكان فى الاستمتاع الآثم ، ومسؤولية الذنب وهى وحدها التى تشقى مع الوليد ثمرة ذلك الاستمتاع الاثيم . ولقد تخلى الآباء عن واجبهم تجاه الاولاد والبنات ومسؤوليتهم فى التأديب والتقويم وظنوا ان فى وضع الحبل عـلى الغارب ضربا من ضروب الحرية ، وأنهم لا ينبغى لهم أن يتدخلوا فى شئون أولادهـم الخاصة وفقد كثير من الآباء والامهات الشعور بالمسؤولية والغيرة والنخوة ولقـد شاهدت بعينى رأسى رجلا مفتول الشارب حملت بنته سفاحا يسأل من كـان هـذا التصرف يغيظه أو يقض له مضجعا فهز رأسه فى شموخ وشمم قائلا انه تصرف لا يحرك منه ساكنا اذ ان بنته قد بلغت من السن مبلغا لا يحس معه بشىء من المسؤولية نحوها . ونتيجة لتفكك الاسرة ، واهمال المرأة الاوروبية لبيتها ، وتخلى الآباء عن مسئولياتهم خرج الابناء والبنات على سيطرة الآباء ، وسلطة الامهات فلم يعودوا يسمعون نصحا ولا ارشادا وتحت شعار الـ (7) " Permissiveness " ـ التى قال عنهـا مستر كالهان رئيس وزراء بريطانيا الحالى وكان وقتها وزيرا للداخلية انها أسوأ كلمة فى القاموس ـ أصبح الجيل الجديد مشكلة المشاكل اذ انغمسوا فى الجنس والعنف ، والمخدرات وارتكاب الجرائم بصورة مفزعة مخيفة (8) ... وظهرت طوائف من الشبان والشابات كالهيبز والـMonkeys والـ Beatles وما شئت من غرائب ومنكرات تمردت على كل قيمة ، وخرجوا من كل عرف وكفروا بكل نظام ، وأنكروا كل شىء حتى عـرفوا بـ " The Droppers " أو الخارجون الذين خرجوا عن المجتمع بتقاليده ونظمه وأعرافه " The dropped out of the society " وهم محقون فى خروجهم على النمط الذى يسير عليه الاوروبيون فى حياتهم اذ احسوا ان الحياة المادية التى يعيشهـا الاوروبى لا ترضى طموح الانسان ، ولا تواكب تطلعاته ، ولا تشبع جوعه النفسى ، ولا تروى لروحه ظمأ ولا تشفى له حاجة ، ولكنهم لا يعرفون المخرج ، ولا يهتدون

---

7) يعنون بها التسامح .

8) هناك دراسات قام بها بعضهم كما فعل د. Donald West فى كتابه The Young offender

السبيل وانما هو الانطلاق وراء النزوات ، واجابة الشهوات التى لا تزيدهم الا ظمأ على ظمأ وجوعا على جوع ووصل بهم الحال الى درجة جعلتهم يصفون الحياة بالعبث والقرف والعدم وفقدان المغزى " Meaninglessness "

ولم يصل المستوى الى هذا الدرك الا لان المرأة الاوروبية قد تخلت عن واجبها الاول وهو التربية والرعاية والعناية بالبيت والازواج والاطفال ذكورا واناثا وذلـــك لانها انشغلت أو شغلت بأشياء أخرى عن هذا الواجب الانسانى المقدس وقد تجد المسكينة نفسها مدفوعة للعمل والكدح خارج البيت ، فنظرة المجتمع الغربى نظرة مادية صرفة قل ان تجد فيها مكانا للمشاعر الانسانية النبيلة الخالصة التى تؤثر الايثار الكريـم الذى يدفع الى الترابط والتعاون والاخاء ، ولقد تظن انها اذا ما عملت استطاعت ان تستقل استقلالا اقتصاديا بمنحها ذاتيتها وشخصيتها ، ويجعلها تشعر بشيء مـــن الحرية وانها انسان مكرم ، وان مجتمعا لا يقدر فيه الا الجانب الانتاجى المادى وحده لجدير بأن يكون بؤرة للمشاكل المعطلة والمسائل المستعصية التى تعى من يحـــاول حلها من المفكرين والمخططين ٠

هذا ، ولقد ادرك جمهور من المفكرين المعاصرين من الاوروبين ان انشغال المرأة بتدبير المعاش أدى بالضرورة الى تفكك الاسر وهدم البيوت وفى ذلك يقول الفيلسوف الانجليزى B. Russell (ان الاسرة انحلت باستخدام المرأة فى الاعمـال العامة واظهر الاختبار ان المرأة تتمرد على تقاليد الاخلاق المألوفة وتأبى أن تظـــل أمينة لرجل واحد اذا تحررت اقتصاديا) والجزء الاول من كلام الرجل صحيح فى جملته صائب الا ان الجزء الاخير لا يمكن ان يقبل على علاته ، فالاقتصاد على أهميتـه التى لا تنكر ليس كل شيء فى حياة الناس فهناك من العوامل ما هو أشد سطوة وتأثيرا من الاقتصاد ، والمرأة ان كان لها وازع من دين وخلق وتربية وضمير يمكن أن تعيش أمينة لزوجها « الواحد ! » وان ملكت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيـــل المسومة والانعام فالعبرة بالعقيدة الدينية الحقة التى تعطى الانسان رجلا كان أو امرأة تصورا صحيحا للوجود يجعله يتصرف فيما آتاه الله تصرفا عادلا رشيدا ، ويقيم حياته كلها ، وتصرفاته كبيرها وصغيرها وعلاقاته على ميزان قسط لا يجوز ٠

وكثير من الناس ـ والغربيون أولهم ـ يرى فى المرأة الجسد وحده (9) لهذا تجدهم قد مهدوا لها الطريق ، وذللوه لها وفرشوه بأنواع الورود وعبدوه لتخرج من بيتها ، وتكفر بدينها ، وتحتقر تقاليدها ، وزينوا لها بما يوحون من زخرف القول ان فى هذا تكريما لها ، وتحقيقا لحريتها ، واستبعادا لشبح استعباد الرجل لها ، واعترافا بمقومات شخصيتها فلها ان تغشى النوادى الليلية وتنفق الليل كله سهرا وسكرا وعربدة ولها أن تتلوى فى الطرقات كاسية عارية متبرجة ، ولها أن تتبذل وتتخلل من كل قيد ، وتخفف من كل أصر وتنال لذتها مع من تحب وتشتهى · ولقد أدركت النساء العواقل ان ليس فى هذا تكريم للمرأة وانما هو امتهان لها ، وعبث بكرامتها ومتاجرة بجسدها ، واستغلال لانوثتها فما من نكبة انكى على المرأة من ان تكون متاعا مبذولا لعيون جائعة ملتاعة ونفوس ظامئة مريضة ، وقلوب خاوية متحجرة لا يهمها من المرأة الا الجسد فاذا ناله فليقذف به قذف النواة فما له فيه من حاجة ولا وطر بعد ان قضى منه حاجة وطرا · ادركت النساء العواقل شيئا من هذا فارتفعت بعض الاصوات النسائية معلنة رفضها واستنكارها لهذا الاستعباد المغلف ، والاستغلال الملفوف ··· ارتفعت تندد وتنادى بوقف ما يسمى بمباريات اختيار ملكات الجمال "Miss of the World" التى تقام من حين الى حين ، وتوزع فيها الجوائز ، وتصحب بضجة اعلامية هائلة ما لها من مبرر وفى استعراض جسم المرأة بتلك الصورة الغوغائية المزرية ارتداد بالانسانية الى الوراء ، وارتكاس بها فى حمأة الطين التى انفقت الانسانية عمرا طويلا مديدا فى محاولة للتخلص من وطأتها والنجاة من قبضتها ومحاولات التهذيب والتقويم والترشيد كلها تبوء بالفشل الذريع الماحق اذا ما أهلت التربية النسائية وانطلقت النساء متبرجات بزينة ينشرن الفتنة فى كل مكان ، ويبثثن ويبثثنها فى كل ركـن ·

لقد قطع الاوروبيون أشواطا بعيدة فى مجال الكشوفات العلمية ولكننا نظلم انفسنا ظلما بينا ان ظننا ان التقدم العلمى يجعل منهم قدوة فى كل مجال ومحاولات التقليد

---

9) الاسلام يحترم فى المرأة فكرها وعقيدتها وايمانها **(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ...)** « البقرة : 221 » .

عندنا لاستعارة انماط السلوك الاجتماعى عندهم انما تكشف عن انطماس فى البصيرة ، وسوء فى البصر مما آل اليه الاوروبيون اليوم الى مصير مظلم ، وحاضر قاتم دفـع بالكثيرين منهم الى ادمان المخدرات ، ودخول المستشفيات العقلية والعصبيـــة والنفسية ، والتخلص من الحياة قبل أن تتخلص منهم الحياة فللوجود هدف وللحياة غاية ومن يجهل هذه الحقيقة الكبرى رجلا كان او امرأة فلا حظ له سوى التعاســة والشقاوة والقلق وان ملك ما ملك والا فما الذى يدفع بامرأة كمارلين مارنو للانتحار وعندها ما تتمناه كثير من نسائنا الغافلات ... شهرة واسعة ، وثراء عريض ، وجمال جسدى طاغ ، وحرية فى الخروج مع من تحب وتشتهى ؟ ولكن ذلك كله لم يعصمها من وضع حد لحياة لم تهبها سكينة وطمأنينة وراحة ورضى ... والعجيب ان ما يبكى منه القوم يحسدهم عليه أقوام يعيشون بيننا يرون السعادة كلها فى تقليد الاوروبين سلوكا وأسلوب تفكير ، ونمط حياة ولسان حال الاوروبيين يردد مع شاعرنا المتنبى رحمه اللـــه :

ماذا وجـدت من الدنيا وأعجبـه   انى بما أنـا باك منه محسود !

ولا أود أن يفهم من هذا اننى انكر ان المرأة الاوروبية قد نالت بعض الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية كحق الانتخاب والترشيح والتعليم وتقلد المناصب رفيعها ووضيعها ولكننى أرى ان ما فقدته أقيم مما نالته وهى بعد ما نالت الا لانهـا انسان مكرم مسئول ، وهى بهذا الفهم ، وبهذا المستوى تستحق هذه الحقوق من غير ما مطالبة ولا مظاهرة ولا نصب ، وقد احتاجت المرأة الاوروبية لتنال بعض الحقـوق التى وهبتها لها شريعة الله من غير ما مئونة وكلفة واحتجاج وتعب .

ان ما أطلقنا عليه وصف الجاهلية الحديثة لا يقتصر ـ أيها السادة ـ على الاوروبيين وانما يشملنا نحن الذين نتسمى باسم الاسلام أيضا . فلا تزال المرأة فى كثير من المجتمعات العربية ترزح تحت وطأة الجهل الفاضح ، والتخلف الشنيع ، والجاهليـة المظلمة ، ولا تزال فى كثير منها خاضعة لسيطرة الرجل فى ألصق المسائل بها كمسألة الزواج مثلا فلا يقام لرأيها حساب ولا وزن ، ولا تستشار فى كثير من الاحيان مجرد استشارة ولا تزال العلاقات الزوجية محكومة بالاستبداد والتحكم والقهر من جانب

الرجل ، ولا تملك المرأة خلاصا ، ولا تجد سبيلا للفكاك من حياة زوجية كلها أسر وضر وضرار • ولا تزال محرومة من حقها الخالص فى المهر والصداق ، والميراث فبعض الاسر الغنية فى بعض المجتمعات العربية تحرم البنات من فرصة الزواج ولا تزوجهن لئلا تنتقل ثرواتهم وتتفتت فى آخرين مرددين مع الفرزدق قوله :

بنونا بنو ابنائنا وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الاباعد

وأسوء ما فى هذه الاوضاع الجائرة الظالمة انها فى زعمهم تستند الى الدين والدين منها براء • فهم يشيرون الى ان الرسول (ص) قد نهى عن تعليم البنات الكتابة قائلا : (لا تعلموهن الكتابة وعلموهن الغزل وسورة النور) • وفى صبح الاعشى للقلقشندى(10) بعض الآثار المنسوبة الى كبار الصحابة تنحو ذلكم المنحى وهى أحاديث موضوعة ، وآثار مختلفة لم تثبت من طريق صحيح موثوق به يمكن الاطمئنان اليه والاعتماد عليه ، وأحاديث الرسول (ص) لا تؤخذ من كتب الادب كصبح الاعشى ، والعقد الفريد وغيرهما وانما تؤخذ من كتب الاحاديث الصحاح كالبخارى ومسلم • ولقد روى بعض الائمة الكبار من المحدثين والفقهاء كابن حجر العسقلانى وابن عبد البر الاندلسى ان الرسول (ص) طلب من الشفاء العدوية ان تعلم زوجه حفصة بنت عمر الكتابة ففعلت ولا يستقيم عقلا ان يأمر الرسول (ص) بتعليم أزواجه الكتابة والخط ثم يحجر هذا الحق على النساء الاخريات والاسلام ـ بعد ـ دعوة الى الاخذ بأسباب العلم ، والتعلق بأهداب المعرفة وأقوال المسلمين واعمالهم ولا سيما فى عهود التيه والضلال لا تنهض حجة فى دين الله •

لقد جاء الاسلام بالموازين القسط ، والاحكام العادلة فلم يحاب المرأة على حساب الرجل ولا الرجل على حساب المرأة ولم يجعل العلاقة بينهما علاقة صراع وعداوة وبغضاء وحرب وخصومة بل جعل منها علاقة محبة ووئام وسلام وتعاون على خلق المجتمع الربانى المسلم فكل عبد لله لا حد سواه • والبنت التى كرهها المجتمع واعتبرها منحة تستحق العرفان وهبة تستأهل الشكر وقدمها قائلا (**يهب لمن يشاء**

---

10) نقل د. الحوفى شيئا منها فى كتابه المرأة فى الشعر الجاهلى : 335 :

اناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما) « الشـورى : 49 ـ 50 » ٠

وطالب الاسلام بتعليمها وتأديبها وتثقيفها وحسن القيام عليها ٠ وتأديب البنت واجب مفروض ، وتدريبها على الخلق الفاضل ، والدين الراجح مسألة لازمة (**يا أيهـا النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين)** « الاحزاب : 59 » ومن يشترى لبنته الفساتين الضيقة الكاشفـة غير الساترة فلا يلومن الا نفسه ان بغى عليها ، ولقد كشف تحقيق فى عدد من اعـداد صباح الخير المصرية عن حقائق مذهلة فبعض الآباء لا يسأل بنته من أين له ثمـن الفساتين الغالية الثمينة التى تخرج بها متبخترة متمخرطة وهو لا يدرى من أى الجهات جاءتها ، ولا من أى المصادر أتتها ٠

هذا وقد كان (ص) يظهر اهتماما كبيرا بالتربية النفسة للبنات فيدعو الى عـدم الايثار ايثار الذكور على الاناث ويقول (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم) والبنت التى لا تربى تربة قومية لا تستطيع القيام بدورها كاملا من توجيه الابناء التوجيه الصحيح اذ ان فاقد الشيء لا يعطيه ٠ وكان (ص) فى حياته العملية المثل الحى فى رحمة البنات والعطف عليهن ومعرفة حقوقهن والدعوة الى تأديبهن وتعليمهن ولقد آتت السياسة الاسلامية الجديدة ، والتصور الاسلامى الجديد للمرأة ومكانها أكلها فبرزت النساء فى مجال العلم والفضل فهناك عدد من الحوافظ اللواتى جمعن القرآن ، وعرفن السنن ورجع اليهن الرجال فى كثير من الاحكام والمسائل ٠ وكان للنساء المسلمات دور بارز فى أكثر من ميدان حتى فى ميادين الحرب والقتال ومن منا لا يذكر غزالة التى استطاعت أن تهزم جيشا للحجاج ابن يوسف حتى قال فيها عمران بن حطان مخاطبا الحجاج :

أسـد علـى وفى الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صغير الصافر

هلا برزت الى غزالة فى الضـحى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

خبلـت غزالـة قلبه بفـوارس ... تركت منـازل كامس الـدابر

وشاركت المرأة فى الحركة الفقهية الضخمة التى استمرت حينا من الدهر طويلا فى سعة وازدهار وغنى فها هى فاطمة بنت الشيخ علاء الدين السمرقندى تجادل وتناقش وتفتى وترد زوجها الشيخ علاء الدين الكاسانى وهو من هو علما وفضلا وفقها ·

وهكذا كان الاسلام انقلابا هائلا فى حياة النساء والرجال سواء بسواء واذا حلا لبعض الناس أن يضرب المثل بعمر ابن الخطاب ليبين فضيلة الاسلام عليه فلنا ان نضرب المثل بالخنساء أيضا فالخنساء فى الجاهلية لطمت الخدود ، وشقت الجيوب ودعـــت بدعوى الجاهلية أما فى الاسلام فقد كانت مثالا للصبر على المصائب والجلد على المكاره وعندما بلغها استشهاد أبنائها الذين دفعت بهم للجهاد فى سبيل الله لم تزد على أن قالت الحمد لله الذى نشأنى أحلى حتى اشهد استشهاد أبنائى (11) ··· وهكذـا تغيرت النظرة ، وانقلبت القيم ولم تعد النظرة البالية هى النظرة المسيطرة المهيمنة الغالبة فالفرعاء بنت طريف عندما ترثى أخاها وتبكى القيم الاسلامية الجديدة المتمثلة فى تقوى الله عز وجل وخشيته : ايا شجر الخابور ·

أيا شجـر الخابور مالـك مورقا   كأنك لم تجزع عـلى ابن طيف

فتى لا يحب الزاد الا من التقى   ولا المال الا من قنا وسيـوف

وكان لابد للاسلام من أن يواصل سيرة مع المرأة التى كرمها وأعزها ورفع عنها اصرها والاغلال التى كانت عليها فعرف لها حقها فى الانسانية المكرمة المفضلة على كثير ممن خلق وما يترتب عليها من حقوق فى الرجل والمرأة من أهل انسانى واحد **(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ···)** « النساء » **(فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضكم من بعض)** « آل عمران : 95 » ·

وما دامت المرأة مساوية للرجل فى الانسانية فيمكنها بتوفيق الله وبما تبذل من جهد ان تشارك فى كل عمل طيب كريم وان تنال ثمرة عملها المتمثلة فى الاجر

11) مما يزيد فى صبر لنساء المؤمنات على فقد الاولاد قوله (ص) ما منكن امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثا الا كان لها حجابا من النار) زاد المسلم : 352/2 .

الرابع ، والثواب الجزيل (**ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما**) « الاحزاب : 35 » .

وما دامت المرأة مساوية للرجل فى الانسانية فحقها فى الحياة محفوظ (**ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** ...) « الانعام : » ومن قتل امرأة قتل بها ولابد أن نشير هنا الى ان العرب فى جاهليتهم لم يكونوا يساوون بين المرأة والرجل فى الدماء (12) فان قتل اخشى رجل أشرف امرأة فانه لا يقتل بها فجاء الاسلام يجب هذا القانون المجحف ، ويبتره بترا فمن قتل امرأة قتل بها والنفس بالنفس .

ان الله الذى خلق الزوجين الذكر منها والانثى لا يحابى طرفا على حساب طرف آخر وهكذا رسم للجميع طريقا ، واختط لهم هدفا ، وأتى بقواعد تحكم الجميع ، ويخضع لها الكل . فالمرأة مطالبة فى الاسلام بما يطالب به الرجل من واجبات دينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ...) « التوبة 71 ــ 72 » وان تعجب فعجب قول بعضهم ان صوت المرأة عورة ينبغى ان يستتر فلا يسمع مع ان الله سبحانه يأمرها امرا ان تكون آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر وان كان ثمة منع فهو منع الفتنة المتمثلة فى الاخضاع بالقول أما القول السديد ... أما القول المعروف فهو حق للمرأة لا يمارى فيه ذو بصر (**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا**) « الاحزاب : 32 » .

---

12) الاسلام والمرأة : 32 .

والمرأة مطالبة مكلفة كالرجل سواء بالتمسك بالآداب الاسلامية الرفيعة (**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان**) « الحجرات : » (**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ...**) « **النور : 30 ــ 31** » ٠

والعلاقة بين المرأة والرجل قائمة كلها فى شرع الله على المعروف والاحسان والبر والايثار (**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف**) « البقرة : 228 » (**فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن باحسان**) (**الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**) « البقرة : 229 » ٠

فالعلاقة بين المرء وزوجه لا تحكمها الانانية وحب التسلط والاستعباد فان أطاعت المرأة زوجها فانما هى الطاعة فى المعروف الا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فالامر كله يقوم على التفاهم والتشاور والاحترام المتبادل (**فان أرادا فصالا عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليهما**) « البقرة : 23 » فالدين الذى يدعوا الى التراضى والتشاور فى مثل هذه الامور لا يقال عنه انه يفرض سيطرة على المرأة والزواج ذلك الميثاق الغليظ والعهد المؤكد مطلوب فيه أن يؤدى ثمرته حياة هادئة مستقرة بعيدة عن التنازع والشقاق (**خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة**) ٠ والرجل المسلم مطالب بحسن المعاملة حتى فى حالة الكراهية لزوجه (**فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**) « النساء : 9» (13) ولهذا ذهب بعض الفقهاء الى أن الزواج حرام على من يعرف عن نفسه سوء العشرة وحدة الطباع التى لا تحتمل علاقة دائمة ٠

---

13) هناك بعض الحالات التى يحرم فيها الطلاق انظر : مدى حرية الزوجين فى الطلاق : 84 وما بعدها .

ورای المرأة لابد أن يؤخذ ـ ثيبا كانت أو بكرا ـ فهى أحق بنفسها من وليها ولا ينبغى لنا ان نتقيد بالمذاهب الفقهية تقليد ضيقا حرجا يفوت علينا كثيرا من المصالح الدينية والدنيوية ونحن متقيدون بما جاءنا به الرسول (ص) من ربه قرآنا كان أو سنة أما آاء الرجال فلكل عصر رجال ولا بد أن ننظر الى الادلة والبراهين والحجج لنعـــرف الرجال بالحق ولا نعرف الحق بالرجال وبعض الفقهاء قد يتشدد فى جانب ويلين فى جانب ولم يقل احد منهم ان رأيه حجة ملزمة يصادر اليها فان وجدت مفسرا يقـــول فى قوله تعالى (**ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما**) السفهاء ها هنا النساء والوالدان فلك أن تضرب برأيه عرض الحائط فهو افساد للغة وافساد للدين كما يقول الامام الطبرى (14) اذ السفيه الذى لا يحسن التصرف نزقا وطيشا وخفت وهذه صفة قد توجد فى الرجال كما توجد فى النساء وقد توجد فى الصغار كما توجد فى الكبـــار ٠

ان الاصل فى الزواج الاستمرار اذ انه رابطة وثيقة لا يجوز فصمها الا لضرورة مستعصية قاهرة (**وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا**) « النساء : 21 » ٠

ولهذا فالطلاق تشريع استثنائى وليس قاعدة أساسية والاسلام يدعو فى صراحة ووضوح الى أن يقوم كل من الزوجين بمسئوليته تجاه الطرف الآخر ويدعو الى الصبر على تلك المسئوليات ويدعو الى الاحسان فى المنشط والمكره ، والحب والبغض ، والامساك والتسرع ٠ ونحن لا نزعم ان الطلاق أمر غير مشروع وما فى هذا الزعم بعد فائدة اذ أثبتت التجارب ان تحريمه يؤدى الى كوارث لا تنتهى وفضائح لا تقع تحت حصر ٠٠٠(15) لا نزعم انه غير مشروع ولكننا نضعه حيث وضعه الشارع الحكيم فهو مشروع ولكنـــه بغيض لا ينبغى ان تقوم عليه ولنا عنه مندوحة وسعة ٠ روى البخارى ومسلم عن ثوبان : (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة) ٠

14) تفسير الطبرى/7 : 565 وما بعدها .
15) أنظر مدى حرية الزوجين فى الطلاق : ص 52 وما بعدها »

أما اذا كان على المرأة بأس ··· أما اذا كان هجرها ولم ينفق عليها ··· أما اذا ساء معاملتها ، وتنكر لها · ولم يرع لها حرمة ، ولم يرقب فيها الا ولا ذمة اما اذا لم تطقه بغضا فحقها فى الخلع مكفول (جاءت امرأة قيس بن ثابت الى الرسول)ص(فقالت له يا رسول الله قيس لا انقم عليه فى دين ولا خلق ولكننى نظرت اليه من جانب القوم فى عدة من الرجال فاذا هو أقصرهم قامة ، واشدهم سوادا ، وأقبحهم وجهــا فلا انا ولا هو ( )16(·

وهكذا حفظ الاسلام للمرأة حقها فى الحياة وحقها فى الكرامة الانسانية وحقهــا فى التعليم وحقها فى العمل **(للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)** وحقها فى الاختيار وحقها فى الخلع ، وحقها فى المشاركة فى ألوان البر كله ، وحقهــا فى المهر (**واتوا النساء صدقاتهن نحلة**) وحقها فى التصرف **(فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا)** وحقها فى الميراث **(للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون** وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون فما قل فيه أو كثر نصيبا مفروضا) · « النساء : 7 » وهى بعد لا تطالب بنفقة وان ملكت القناطير المقنطرة الا ان تبرع ، ولا تطالب بعمل فى البيت كطبخ وغسل ورضاعة الا أن تطوع وعلى الرجل الانفاق والخدمة والسكن (**أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن**) · وبعد هذا كله يأتى بعض قصار النظر ، قليلى المعرفة ، ضحلى الاطلاع ليزعموا ان الاسلام يظلم المرأة ان قال قرآنه **(للذكر مثل حظ الانثيين)** (17) وأخيرا فأنا لا أنكر ان المسلمين فى حياتهم العملية ولا سيما فى عهودهم المظلمة قد تنكروا للمرأة ومنعوها بعض حقوقها ولكن هذه الحقوق ظلت امرا مثبتا مشروعا فى القرآن والحديث والكتب الفقهية التى استقت من هذين المصدرين العزيزين واعتداء المسلمين على المرأة فى بعض العهود لا يؤخذ به الاسلام الذى يؤخذ من النصوص القرآنية والاحاديث النبوية ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ·

16) انظر فى الخلع : أحكام الاحوال الشخصية ص 305 وما بعدها .

17) اعترف المنصفون من الباحثين الغربيين ان الاسلام منح المرأة حقوقا فى الميراث لا مثيل لها فى قوانينهم ــ المرأة فى لاشعر الجاهلى : 269 .

مراجـــع البحـث

1) القرآن الكريم .

2) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم : محمد حبيب الشنقيطى .

3) تفسير الامام الطبرى تحقيق محمود محمد شاكر ـ دار المعارف بمصر .

4) الاسلام والمرأة : سعيد الافغانى طبعة ثانية ـ دمشق 1964م .

5) المرأة بين الفقه والقانون : د. مصطفى السباعى ـ دمشق 1962م .

6) المرأة فى الشعر الجاهلى : د.

6) المرأة فى الشعر الجاهلى : د. احمد الحوفى : القاهرة 1954م .

7) مدى حرية الزوجين فى الطلاق ـ عبد الرحمن الصابونى : الطبعة الثانية 1968م .

8) أحكام الاحوال الشخصية فى الفقه الاسلامى ـ د. محمد يوسف موسى ـ دار الكتاب العربى 1958م .

